سماء الغزلان

رواية

سماء الغزلان

رواية

كريم محمد علي

مراجعة لغوية: عبد الفتاح الشيمي

تصميم الغلاف: د. بولا وجيه

الطبعة الأولى: 2021

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 21998 /2020

الترقيم الدولي: 2- 34-6798-977-978

إشراف عام: رباب الشهاوي

الفؤاد للنشر والتوزيع

برج سانت فاتيما. أمام جنينة مول. مدينة نصر

Alfouad_publishing@hotmail.com

facebook.com/fouadpublishing

سماء الغزلان

رواية

كريم محمد علي

الفؤاد للنشر والتوزيع

إهداء

الحديث عن (سماء الغزلان) دون ذكر هذه الأسماء ما هو الا إجحاف في حقهم ، فلولا آرائهم ما كنت أنا
آن بشرى: وجودها كان سببًا رئيسيًا في كتابة العمل
عبد اللّٰه العربي وعزة عبد الرؤوف ومحمد عجيز: شكر خاص لهم على آراءهم أثناء كتابة العمل وبعد انتهائه
محمد جمال وريحانة محمد: دائمًا وأبدًا هنا لمساندتي
رحمة عماد ومحمد ماجد وأحمد تركي وروضة محمود: ساعدوني خلال فترات تشتتي الدائم
إلى أحمد الملواني: منارة الطريق لشخصٍ تائه اسمه (كريم)

وفي النهاية...

إلى سحاب وبعض الغائبين.

المقدمة

مرحبًا

عادةً لا أحب مخاطبة العينين التي تقرأ ما أسرده، ولكن هذه المرة تبدو مختلفةً بالنسبة لي، من دون عينيك لن أدنو، ولو خطوة، لما أريد.

حسنًا، يمكنك اعتبار جُملتي نوعًا من الغزل أو التملق؛ فأنا في الواقع لا أهتم سوى بأن تبقى عيناك هنا.. ويأتي بعدهما بالترتيب عقلك ثم قلبك؛ لأن هذه مذكراتٌ درامية من الدرجةِ الأولى، ربما تجدها عاطفيةً قليلًا، ولكنها تحكي عن بطلٍ سابقٍ وروائيٍ مشهورٍ الذي هو أنا.

لا أعد بأن تكتمل عملية سردي، ربما أعتبرها في لحظة من اللحظات هراءً تامًا، وربما أنت أيضًا، ولكن ما دمت هنا تقرأ إذًا فأنا مازلت أحاول إقناعك بأن تدخل عالمي الخاص، وحتى الآن أعتقد أنني بدأت في النجاح؛ لأنك ما زلت هنا.

لا توجد الكثير من القواعد إلا أن تبقى صامتًا، وتستمع لي، والآن لِمَ التأخير؟!.. فلنبدأ الحكاية.

حكاية رجلٍ عادي.

❊ ❊ ❊

اسمي (سحاب)، وسأسقط فوقكم جميعًا يومًا ما.

❊ ❊ ❊

ليلةٌ مناسبة للانتحار

الغرفة مظلمة، هاتفي لا يكف عن تلقي الإشعارات، أحاول التركيز فيما أفعله، ولكن دون جدوى.

الوقت لم يعد معلومًا، لم أعد أعرف كم مر من الوقت على أي شيء؟ أعتقد أنه بسبب ما حدث لي في تلك الليلة التي لا أتذكر متى كانت؟ ومنذ وقتها لم أغادر غرفتي.

اسمي ليس مهمًا أو هيئتي أو طولي أو ديانتي.

أنا أعرف أنني هنا، وأعرف أيضًا أنني أعمل مؤخرًا كروائيٍ هاوٍ، أدر ربحًا لابأس به وخصوصًا من روايتي(سماء الغزلان) التي تخطت الطبعة العشرين في يومها الأول، ولكن هذا ليس مهمًا على أية حال.

أمسك بقلمي من جديد، أحاول البدء قبل أن يقاطعني صوت هاتفي وصوت شخصٍ أو أشخاصٍ بالخارج يتحدثون مع بعضهم البعض بكل مرح.

عقلي يعاندني.. يسبني.. يقول لي أنني لن أنجح أبدًا في كتابة نصٍ عادي، ألعنه بصوتٍ واضحٍ، وأبدأ في خلق قصةٍ والحكي.

تبدأ القصة ببطلٍ عادي في نهارٍ مملٍ، يحاول الوصول إلى عمله قبل وصول رئيسه لكي يتجنب العقاب.

الطريق دائمًا من صلاح سالم إلى العباسية أقرب ليومِ الحشر، الساعة كادت أن تصل للثانية ظهرًا. (أن تصل متأخرًا خيرٌ من ألا تصل مطلقًا)، يقولها البطل مبتسمًا في توتر، فيظن جاره بالمقعد أنه مجنون. يركض بعد أن يصل لمقر عمله متأخرًا بنصف ساعة كاملة، يلعن الحر، الشمس، الزحام، صلاح سالم، رئيسه

في العمل، والعمل وما به من موظفين قبل أن يلعن نفسه ككل نهار؛ لأن الله قد خلقه عاديًا لا يملك قوة خارقة كقوة المال الفاحش.

لا يخفف تكييف المقر من حرارة الموقف، عرقه يتساقط من ركضه ومن نظرات رئيسه الموظفين وخصوصًا نظرات(عفاف) المشفقة عليه دائمًا ببنطاله الواسع ولبسه غير المهندم وشعره المشعث بشكل سيء، ليس كأبطال السينما.

يعنفه مديره.. يخبره بأنه من أسوأ الموظفين الذين مرواْ على هذه الشركة، رغمًا عن أن (رامي) صديقه يدخن في غرفة الرئيس بعد رحيله، و(عادل) يضاجع (كريمة) في حمام الشركة كل يوم وأحيانًا تصل لمرتين يوميًا، و(عفاف) تسرق علنًا من خزنة الشركة، ولكن الجميع يحبونها؛ لبساطتها وتنازلها أحيانًا عن بعض الأمور كرفع تنورتها قليلًا بما يكفي لتوضيح البنطلون الفيزون أثناء الاستناد فوق مكتب الرئيس أو غيره بما يكفي لأن يكشف الحجاب عن صدرٍ عظيمٍ، ولكن لا يعريه بالكامل، وتتركهم بعده تائهين لتفعل ما تريد بالخزنة.

للحظات غاب عنه صوت الرئيس، غارقًا في أفكاره المظلمة وذكرياته السوداء يتمنى لو حدث ما ينهي كل هذا الهراء، استفاق على جملةٍ وبعض اللعاب الصادر من فمٍ غاضب يقول:

ـ يمكنك الآن أن تبدأ عملك الخيري؛ لأنه تم خصم ما تبقى لك من الشهر.

شعر بالدماء تغلي، وتصعد من جسده نحو عقله، وأن رأسه يتضخم والعروق تصنع خطوطًا بارزة من شدة الدماء. صارت رأسه بحجم كرة قدم، ثم استمرت في التضخم حتى بدأت في مزاحمة الأشخاص الموجودين الذين اختلف شعورهم الساخر للدهشة ثم الرعب، وحاولوا الهرب قبل أن يختنقوا بين رأسه والجدار. صوت صراخهم صار أخفت، ثم انفجروا متحولين لقطع

دموية ضخمة تلطخ الرأس الذي صار بحجم المبنى والجدران التي بدأت في التهاوي؛ فيصرخ الناس، ويركضون هربًا من الرأس المسببة لنهاية العالم.
انتهت.

انتابني شعورٌ بالبهجة في البداية سرعان ما اندثر. وددت لو كان بإمكاني تعديل الأخطاء التقليدية كإضافة وصف لمقر عمله.. أو إعطاء الفرصة الكاملة للبطل لتوضيح نفسه إلا أن ما أثار سُخطي هو نهاية القصة المنتهية الغريبة التي تليق بكاتبٍ للخيال وهو ما حاولت تغييره منذ مدة.
كانت هذه محاولتي الأولى بعد المائة لكتابة قصةٍ عاديةٍ، ولكن كأخواتها قد باءت بالفشل. يبدو أنني سأعيش في ظل(سماء الغزلان) إلى الأبد، ولكن ماذا قد يحدث لو أنهيت هذا الجحيم الليلة وقررت الانتحار؟!
ستكون قصةً عاديةً لها أكثر من تفسير.
سيقول أحدهم أنني انتحرت بسبب المال أو النساء أو المخدرات سواء لقلتها أو كجرعةٍ زائدةٍ، سيقولون إنه الملل المصاحب للنجاح؛ أو فعلتها لأنني لم أجد شيئًا آخر لأفعله. ستبكي أمي أمام الصحافة، سيلتقطون صورة لكل غرض من أغراضي التافهة، سيتم نشر قصصي الخيالية، وعندها سأصير- فجأةً- أعظم كاتب خلق على وجه الأرض، ستزداد (سماء الغزلان) شهرةً أكثر من شهرتها، وهذا يعني أنني حققت أمنيةَ الصوت، وهذا لن يحدث أبدًا.
إذًا، الاختفاء هو الحل، الاختفاء والانتحار هذا لن يضر، لن يضرني أنا على الأقل.
لا أذكر شكلي ولا شكل العالم بالخارج، الضوضاء الصادرة من خلف الباب تشي بحياة خالصة، وضعت يدي فوق المقبض بعد أن تخلصت من قصتي

المشوهة، دقات قلبي تعلن أنه غير جاهز لرؤية شكل العالم بعد، لكن عليَّ أن أخرج، أدرت المقبض، وخرجت دون أن ألتفت للحديث الذي أصبح موجهًا لي من أمي وأختي وأبي متسائلين عن وجهتي وعزلتي الممتدة لأيام، فتحت باب المنزل، وخرجت دون إجابة أسئلتهم، وكل ما كان يدوي بعقلي عن الطريقة التي ستنتهي بها هذه الحياة.

***

استكشافي للعالم كان كاستكشاف عالمٍ في لعبةٍ إلكترونيةٍ جديدةٍ، تبدو المباني رمادية أكثر من اللازم، وكل شخص لا يهتم بما يحدث من حوله سابحًا في أفكاره السوداء، فكرت في الانتحار وأنا أشاهد فيلمًا في السينما، ولكن شعرت بالشفقة للعامل الذي سيجد جثتي عند تنظيفه للمكان بعد انتهاء العرض وخصوصًا الليلة.. فالليلة الخميس وبالتالي سيحتاج أن يسرع من أجل الوصول لمنزله للراحة والاستمتاع سواء كانت المتعة آتية من زوجته أو دونها. دونت الفكرة سريعًا، ومنعت نفسي من كتابة قصتها حتى لا ينتهي العامل في قصتي باكتشاف نفسه في النهاية كآكل لحوم بشر سابق أو مصاص دماء.

نهر النيل قريبٌ من هنا أكاد أشم رائحته فلِمَ لا؟

شاهدت نفسي أسقط من علٍ؛ لأغوص في مياه النهر العذبة، ولسوء حظي وحظه يراني صيادٌ بائسٌ؛ فيقرر أن ينقذني وهو يسب أحيانًا ويستغفر ويحوقل أحيانًا أخرى، ثم يلعن الظروف والحياة التي جعلت شابًا كالورد مثلي بأن يأخذ حياته بيديه.

ربما ستكون عملًا ممتازًا قبل أن يطلب مني الصياد بيع روحي من أجل أمنيتي أو أن يطلب مني تجهيز نفسي لإنقاذ العالم.

هزمني اليأس، لم أرَ شخصًا يائسًا من قبل؛ لأنه عجز عن الانتحار، الجو حارٌ جدًا، لا أجد طريقةً مناسبة للخلاص من حياتي، وللوصول لقصتي المنشودة. أمشي بدون هدف، أرى وجهي في نافذات المحلات، الناس يرونني شابًا، ولا أرى إلا انعكاس رجلٍ عجوز.. أشعر بقلبي رماديًا أكثر من رؤيتي.. أهرب من نظراتٍ لشخصٍ أظن أنه كاد يعرفني، آخر ما أريده الآن هو شخصٌ آخر يأتي؛ ليسألني عن الجزء الثاني من (سماء الغزلان)، ويناقش معي نهايتها، ويستمر في الحديث متسائلًا عن أعمالي القادمة.

المباني كانت أحن علي من عيون المارة، فالتجأت بأحدها وسقطت لاهثًا أخرج شفرة الموسي؛ لأقطع بها شراييني، ثم أتوقف في اللحظة الأخيرة وأقول لنفسي:

ـ لا ليس هكذا.. وليس الآن ربما غدًا.. ربما غدًا.

***

برج كيرا. ج 1

استيقظت في سريري دون معرفة كيف وصلت إليه! صوت هاتفي يدوي، رددت بصوتٍ شبه نائم لأجد الناشر بصوته المزعج والحماسي المفتعل، وهو يسألني:

ـ أخبار الجزء التاني إيه يا عبقري؟ الناس مستنية.

قلت له بكل ملل:

ـ خليهم يستنوا ،أنا لسه مخلصتش أجازتي.

ثم أغلقت متحججًا بسوء التغطية قبل أن أسمع المزيد من كلامه السخيف.

وجدت العديد من الرسائل، ما بين معجبين ومعجبات ب(سماء الغزلان) والمعجبات بشخصي.

(سماء الغزلان) كانت روايتي الثالثة بعد (فتى الريش) و(نصل الخوف). والعجيب بأن كل هؤلاء المعجبين لم يعرفوا ذلك بالرغم من كون (فتى الريش) أفضل من (سماء الغزلان) إلا أن لكل فترةٍ ظروفها الخاصة.

قبل صدور (سماء الغزلان) غيرت أساليب لعبي، نحيت مبادئي جانبًا بشكلٍ مؤقتٍ، وبدأت في مخاطبة المثقفات والمثقفين المتراوح عمرهم ما بين الثامنة عشر والعشرين عامًا، ممتلئي الصدور أو المؤخرات، خاوي العقول، لا يعرفون عن ألف الأبجدية إلا أنه يبدو مثيرًا، بدأت في استغلال وسامتي مع كلماتي العميقة الحاملة للمعنيين، كوّنتُ جمهورًا ضخمًا من الفتيات، والفتيات تجلب الفتيان. بعد صدور الرواية بيومٍ واحد نفذت كلها تحت أنظاري الساخرة وأنظار الناشر غير المصدقة.

تذكرت يوم حفل توقيع (فتى الريش) في يومها الأول، شاعرًا بالخجل لا أجد من ينظر نحوي ونحو صف الروايات المرصوص أمامي، أستنجد بهاتفي منتظرًا منه أن يأتي لي بصوت أحد الأصدقاء الذين اعتبرتهم كالعائلة؛ ليخبروني بقبول دعوتي للحضور، ولكن الهاتف خذلني ولم يرن، وبقيت أنا أحدق بالفراغ على الرغم من أنني انتهيت من الطبعة الأولي بانتهاء المعرض، والآن أتأمل صورة الصدر العاري العامر باللحم المرسلة إليّ في الرسائل من فتاةٍ تدعوني وترجوني من أجل أن أزور ثديها قريبًا بتعبيرٍ عبقري وهو "بلاد ما بين النهدين تفتقدك، لماذا لا تزورهما قريبًا؟"، مع تعبيرٍ مجازي لوجهٍ غامز.
شتمت الجميع ساخطًا محاولًا طرد رسائلهم من عقلي، حدقت في المرآة باحثًا عن ملامحِ لشخصٍ كوّنْته أنا سابقًا، ولكن باءت محاولتي بالفشل.
لو أردت أَسماكًا ذهبية أذهب إلى أرضٍ ذهبيةٍ. أرضي نحاسية بريقها، لا يجذب إلا الحمقى والمغفلين؛ لذلك يجب أن أبحث عن أفكارٍ جديدةٍ؛ لنصي المرغوب، المنتظر، العادي، المبهر للروائيين الكِبار وللقراء المخضرمين ليكون لدي روايةٌ للعظماء، وثلاثةٌ للعامة كما أحب أن أدعوهم.
حسنًا ، أنا أملك سرًا
أستطيع التلاعب بالخط الزمني، يمكنني القفز للأمام أو للخلف أو حتى إيقاف تحركه الأبدي، لكن هذه القدرة تجعلني أستحضر صاحب الصوت هنا، وأنا أكرهه وأكره صوته.
أعرف ما قد يدور في عقلي عندما أسمع حديثي عن الصوت؛ فيبدو الكلام سخيفًا.
ليس جنّيًّا بالتأكيد أو ملاكًا حارسًا أو شيطانًا مُسلطًا.

هو فقط الصوت، لا أدري من أين جاء، ومتى سيختفي، سأدعوه (سحاب)؛ لأنه جاء من أجل (سماء الغزلان).

أحرك يدي أمام المرآة، أحدد وجهتي أولًا، ثم أتحرك عبر الزمن لأجد نفسي في المترو كما حددت منذ ثانية.

(سحاب) يجلس بجانبي ينظر لي بسخرية، أحتمل غطرسته وهو يقول:

ـ إنتَ اللي زيك وش فقر، مليون كاتب بيتمنى يعمل نص اللي عملته في روايتك. لكن أقول إيه، غبي.

يشعل سيجارةً وهميةً

ـ بس أرجع وأقولك، لسه فيه فرصة. بقلمك ممكن نكتب جزء تاني، هساعدك توصل للي مفيش كاتب في جيلك وصله من الشهرة.

نظرت له صامتًا، لمْ أُعطِهِ فرصة إجراء نقاشٍ معي، جلست أتأمل المارة والركاب، أتأمل الأجساد، وأبحث عن شفرتها محاولًا الهرب من خلالها من جحيم عقلي وصوت (سحاب).

هذه لم تعد أرضي، لم أعد أجد لي أفكارًا هنا إلا أفكاري المريضة، لا أعرف طريقًا أذهب إليه، وحوشي تحلق من حولي، وفوق رؤوس الناس لتمنعني عن التفكير في أيٍ من قصصهم العادية.

جاءتني الفكرة.

أعتقد أنه سآخذ الخطوة وسأقفز، لن أقفز أمام القطار بالطبع، ولكن سأقفز عبر الزمن. أعرف أن للقفزة شروط، أي أنه لن يمكنني القفز بعد ميعاد موتي، أي أنني مقيد بالخط الزمني لحياتي فقط، وستكون هناك فرصة عظيمة لأن أموت خلال القفزة، وسيكون من حسن حظي لو وصلت لمكانٍ أو زمنٍ أستطيع منه كتابة قصتي العادية.

كانت الفكرة سخيفة في بداية الأمر، تمنيت أن يتم اختراع جهاز يسرد ما يقال في عقلي مباشرةً دون الحاجة إلى كتابتها فوق الورق، ثم بدأت الفكرة في إيجاد مكانٍ لها بين خلايا مخي، فصارت أكثر إقناعًا، وقلت لنفسي كل هذا في سبيل ما أود الوصول إليه، فأصبحت مناسبة تمامًا، وقررت أن أبدأ في تنفيذها، ولكن بعد استيقاظي مباشرةً، وعدت للمنزل فورًا؛ لألقي بجسدي فوق سريري، وأذهب في النوم.

***

سحاب يقدم نفسه

دعوني أقص عليكم قصة

في يومٍ من الأيام، عندما كانت الأشياء تملك لسانًا فصيحًا، السماء كادت أن تفيضَ من كثرة القصص المرفوعة، شعر القلم بالحزن. صبَرَ طويلًا قبل أن يبث حزنه بالحبر ، مخاطبًا إله الكون قائلًا:

ـ يا خالق القلم ورب الكلمة، خلقت لكل مخلوقٍ جيشًا يعلو معه، ويساعده على البقاء عاليًا، خلقت للشجرة فروع وأغصان، وللسماء سحبٌ وغيوم، أما عني فقد خلقت لي من هم يعشقون التمرد، لم يتفق أبناء جنسي منذ خلقتنا، يكتبُ أحدهم كلماتك ويكتبُ الأخر كلمات عدوك، منذ وعدتنا واخترتنا؛ لنكون الخلق القادم للكون، ظنت الأقلام أنهم جميعهم هم رُسلك، أما عن حبري فهو محايد، لا يكتب إلا ما أرسمه، لو كتبتُ اسمك يسبح بحمدك، ولو كان اسم عدوك يمجده ويؤمن به، يارب الحروف وخالق الكلمات، أنا لا أستطيع التمرد على أفكاري ومهنتي، فأخلق لي جيشًا يحيدني عن كتابة الشر، ويجعلني جندًا في ملكوتك العظيم.

وصلت رسالة القلم دون تأخير أو تعطيل، مرت من الملائكة الحارسة المنتقية للرسائل، تخطت رسالة القلم رسائل لمخلوقاتٍ ظنت أنها أهم مثل الطين والرياح، وجاء الرد في لحظة إرساله للطلب بكلمتين

ـ لَكَ هذا.

وهنا، خلقت أنا.

اسمي(سحاب) هو اسمٌ سخيفٌ، ولكن لا يمكنني أن أتمرد على اختيار مُضيفي الذي يظن أنه نائمٌ الآن، ولا يعلم أنني أقنعه بالنوم وبقدرته الخارقة

على التلاعب بالزمن، فهو لم يهتم بالعودة لماضيه بل اهتم بقصته العادية الحمقاء، فأقنعه بالنوم؛ لأظهر أنا.
مع كل كلمة أسردها، أقولها، أكتبها أو حتى أفكر بها، تُخْلَق طرقٌ لانهائية، وأراضٍ جديدة ومخلوقاتٍ قديمة، ومع كل طريقٍ جديدٍ يُخلَق تُخلَق معه ملايين القصص؛ الواقعية منها أو الواقعية السحرية، ورغم كل ما هو متاحٌ أمامنا وكل ما يمكننا كتابته، ومع هذا يبحث عن قصته العادية الجاعلة له في اعتقاده بطلًا للمهمشين وسيحقق ذاته بها.
غضبت يوم معرفة أنني عُينتُ مساعدًا له، رغم أنني أعترض على كلمةِ مساعد، ولكن لم أغضب لذلك، ظلت أفكاري تراودني عن مستقبلي القادم، وتخيلت أنني قد أصبح مساعدًا ورفيقًا لكاتبٍ مشهورٍ يحب الوصف أكثر مما يحب السرد، ولأن الوصف جمهوره العام أكثر اتخذت منه دينًا لي أمارسه وأحترفه أكثر من السرد؛ فاهتممت بشكلِ الأشخاص، سواء كانوا فارعي القامة أو قصيرين، لون شعرهم أسودٌ فاحم أم برتقاليٌ كالنار، وعدد الشامات التي يمتلكونها وأماكنها، لم أهتم بالكلمات التي يسردها أو الكامنة داخل عقله، حلمت بأنني سأكون الأكثر شهرة بين أبناء جنسي بعد مساعدتي للكاتب القادم حتى صدمني الناب القديم باختياره لروائيٍ مغمورٍ لم يسمع عنه إلا صديقه الوحيد.
حاولت الهرب عبر محاولة اكتشاف الخطأ الموجود بالغرفة.
الناب القديم يرتدي بدلته البيضاء الناصعة، ولا يشوبها شائبة، شعره فوضوي ولكن يليق بذقنه الحليقة وعينيه الواسعتين، يخبرني بأن مهمتي ستبدأ من الغد، المكتب مزين بثلاث قطع من العاج الأبيض المصقول القادم من فيل له ثلاث أنياب، يدون القرار ويختمه بالدم بريشةٍ لونها لون السماء، الحائط لونه قرمزي

يليق مع لون المكتب ومعلقٌ عليه نياشين حروبه كلها، تمنى لي التوفيق؛ فأشعر بالتيه ولا أقدر على إكمال الوصف.

كرهته منذ ذلك اليوم -(كريم) لا الناب بالطبع- وكرهي له جعلني أحتار الآن؛

هل أوقظه على مفاجأتي الجديدة، أم أوقظه قبلها بقليل؛ ليعرف أي عذابٍ سيمر به لاحقًا؟

***

كيرا الباكي. ج 2

وكأنني لم أنم، الدوار والصداع لازموني قبل أن أنام وبعد الاستيقاظ، صرخت معدتي مطالبةً بفنجان قهوة. ارتديت ملابسي دون أن أنسق بينها، نظرت في المرآة، فوجدتني حليق الشعر والذقن، فقلت أن هذا تحسبًا للفترة الجديدة، شعرت بالحرية ثم الشغف، هي بدايةٌ أتمنى لو تعطيني ما أريد، قصةً عاديةً تليق برجلٍ عادي.

خرجت لأجد أبي جالسًا يشاهد التلفاز، ما إن رآني حتى ابتسم وهو يبارك لي ترجمة (سماء الغزلان) للغة الإنجليزية، قبلت كفه الخشنة، واتجهت خارجًا دون التَّفوُّه بكلمة.

الوقت صار كعملةٍ قديمة لا قيمة لها عندي، فلم أهتم بكيفية وصولي ولا متى. الشوارع تبدو كئيبة بما يليق بأيامي، وسط البلد تبدو ملجأً لحزني في كل الأوقات، اخترت إحدى المقاهي الهادئة غير المكتظة بالمدعين، طلبت كوبي الأول من القهوة، وقبل أن ينتهي طلبت واحدًا آخر، فرمقني النادل بفضول، فأخبرته بتلقائية أنني أنتظر أحدهم؛ فتفهم ذلك، وأحضره على الفور، وتركني شاردًا أحدق، وأتساءل لمن الكوب الثاني؟!

حالتي يرثى لها، أبدو بائسًا، أتحدث مع نفسي بصوتٍ عالٍ، أدخن سجائري الوهمية من نوع المارلبورو أمام أعين الناس الساخرة، لا أدري حقًا هل ساخرة من كون سجائري وهمية أم من تحدثي مع نفسي؟!

سيجارتي الوهمية، تجسيد مارلين مونرو.

صارت الخامسة بعد المائة، أعبث ببعض الأوراق، وأسقط القلم، وأعيد التقاطه منتظرًا لحركتي الأولى.

هل أقدم على قصة جديدة دون أن ألقى نفس المصير أم أتراجع؟

سمية القيصر تشدو بجانبي بغيومٍ صوتيةٍ تحوم فوق رأسي فقط، لا أقدر على التركيز من نبرةِ صوتها المغلفة بالشجن، أكتب أنا في أعلى الصفحة؛ فأجدها تكمل كلماتي.

" أنا بحبه، وأراعي وده إن كان في قربه ولا في بعده".

فأترك القلم متذمرًا، أحاول بدء شيءٍ آخر؛ فأجدها تصرخ كأنها تصرخ بي.

"وأفضل أمنِّي الروح برضاه وألقاه جفاني، وزاد حرماني"، يتبخر شعوري السعيد، وألملم أوراقي، أنتبه لهزة هاتفي، ما بين رسائلٍ واتصالاتٍ، تنقلت سريعًا بين الأسماء، ولم أجد الاسم المنشود، أعاد صوت (سمية القيصر)حنينًا جارفًا، حاولت دفنه منذ سنين، ولفكرة كتابة قصتي الحالمة الحزينة بيني وبين حبيبتي السابقة، إلا أنه ليس هناك الكثير ليحكي بالفعل، الفتى أحب الفتاة، والفتاة لم تحبه، ولكن أرادت العبث هربًا من ملل قيظ الصيف.

لا أخشى كتابة قصتنا، ولكن ستكون قصةً من سطرين، مليئةً بالمشاهد الخليعة، ولن تكون هناك فرصة لأي تغيير كتحوُّلها لساحرةٍ شمطاء بعد ثاني قبلة أو شيءٍ من هذا القبيل، ولكن ربما قد أحكيها لاحقًا، وستروق للعديد من الفتيات المراهقة، سيذرفون الدموع عند قراءتهم لمشهد الفتى وهو يحضر حفل زفاف حبيبته على شخصٍ غيره، ويبتسم أثناء تمايلها على أغنيتهما لمفضلة، وربما لو وصفت بعض القبلات المختلسة في سيارة البطلة مع بعض الجمل الرومانسية الركيكة مع توضيح فحولة البطل والتدقيق على جسد البطلة ربما عندها قد أنجحُ، وتصير الرواية فيلمًا يتحاكى عنه الناس لعدة شهور، ثم يختفي وأختفي أنا معه، ولكن ما أريده بعيد كل البعد عن كل هذا، وأيضًا العالم به ما يكفي من الهراء.

حاولت قراءة المحيطات من حولي لالتقاط أية فكرة صالحة لقصة، وفشلت؛ فحاسبت النادل بنفس الشرود، وخرجت لشوارع وسط البلد، مشيت في حاراتها قبل شوارعها الأساسية باحثًا عن فكرتي بين وجوه الناس، فوق زجاج السيارات، والمرايا العاكسة للمحلات أو حتى منقوشةً فوق مبنى قديم منسية في زقاقٍ مظلم، تعثرت عدة مرات.. اصطدمت بالأكتاف والأذرع دون وعي؛ الناعمة منها والخشنة، اعتذرت بصوتٍ خجل عدة مرات كأنني أعتذر لنفسي، سمعت كلماتٍ متفرقةً ومتراوحةً بين البذاءة والشفقة، لم أفهم ما الذي يثير الشفقة فيّ حتى رأيت انعكاسي فوق بركة من الماء الآسن، شعرت أنني أمشي منذ أيام، ولم أجد بعد الفكرة المثالية التي تليق برواياتي العادية.

ذهبت لمقعدي المفضل في المترو، بقيت لزمنٍ غير معلوم، أتأمل الوجوه والأجساد كعادتي باحثًا عن نصٍ أكتبه، شعرت بالغيظ، جئت في زمنٍ كتب به كل الروائيين كل الأفكار الجيدة والممتعة، فكلهم تحدثوا عن الحب، الموت، المشاعر المشتتة، الحزن، مصاصين الدماء، الوحوش، العاهرات، العاهرات، مصاصة الدماء.

حتى لو قررت الكتابة عن وحوشٍ عاديةٍ تود العيش سالمة مع البشر، ستأتي وحوشي سخيفةً ومبتذلةً لا تمت للخيال بصلة، وسيكرهها العالم وأنا لن آتي بمخلوقٍ ليكرهه العالم، فيكفي كره العالم لي.

أصابني الفتور، جلَدت نفسي؛ لعدم قدرتي على الإتيان بفكرةٍ تقليديةٍ؛ لتقليل الألم الناتج عن الرغبة في كتابة أمرٍ مملٍ، صرخت بالناس....

ـ ياقوم، ألا يوجد بينكم من يملك قصةً يعطيها لي، وأَهِبُه الخلود في المقابل،

فتجيب وجوه الناس العابسة....

ـ ربنا يحنن عليك يا ابني.

***

ستكون رحلةً مرهقةً

***

قلل السرد، كتر الوصف الناس بتحب كدا.

صدى الجملة يتردد في أذني حتى الآن بعد انتظار عدة شهور من أجل الحصول على رد، هل أفلح وتتم نشر روايتي الأولى؟ منذ ذلك اليوم لم أتوقف عن السرد حتى في مخيلتي، إيمانًا بأن كل ما يسرد بالتالي هو عظيم، لم أجد العظمة في وصف كائنٍ ما أو مبنى معين دون الحاجة لقول بأن وصفي للأشياء جيد، ولكن الفارق أنني أترك جزءًا لخيال القارئ، أما عن السرد فكل قارئ لا ينبهر بعظمة السرد هو قارئ ضعيف، فليذهب لمشاهدة الأفلام أو ليحترق في الجحيم لا فارق.
انخرطت في أفكاري، ولم ألحظ أنها قد أصبحت بعد منتصف الليل ورغبتي مازالت هي البقاء والابتعاد عن المنزل، بحثت عن من يقضي ليلته معي.. بمقابلٍ أو من دون مقابل هذه ليست مشكلة ضخمة مثلما أريد فعله.
خَجل، صامت، معدوم الثقة، متلعثم، لم أرَ نفسي وسيمًا في الحياة الواقعية بعيدًا عن الصور ومواقع التواصل، لا أبحث عن متعة الجنس بل أبحث عن دفء الحب، دفنت عيني بالتأمل في خطواتي هربًا من التقاء عيني بإحداهن، طاردتني سخرية الفتاة التي سأتفاوض معها من أجل عناقٍ حميمٍ ربما يؤدي إلى الجنس، ولكن دون هذا لن أعدك بالجنس آنستي.
ـ آنستي؟!
*ضحكة رقيعة
فأطرد الأفكار من مخيلتي، وأنا أشعر بالخجل من موقفٍ حدث فقط في خيالي.

حسدت المارة، كلٌّ منهم لديه من يؤنس وحدته إلا أنا، في عالمٍ موازٍ كنت سأكون بين ذراعيها أنام وأنا أفكر، كيف لشخصٍ في هذا الكون الكئيب أن يكون برائحةٍ ملائكيةٍ كتلك ودفءٍ كدفئها؟

وبما أننا لم نكن في عالمٍ موازٍ، فتبدو الوحدة كوضع أخيرٍ إجباري، لذلك كل ما عليّ أن أفعله هو القفز ناحية الحدث القادم لتبدأ أحداث قصتي.

***

الزمن نسبي، غير عادل، قاس، يوزع نقماته على الجميع دون تمييز، ترك الجبال الموجودة منذ ملايين السنين، والمحيطات المتزامنة مع مولد عالمنا والكهوف المهجورة والصحراء الشاسعة والأراضي غير المعمورة، وأخذ مني سببي الوحيد للصمود ولبقائي على قيد الحياة؛ فوددت لو كان بإمكاني الانتقام.

المزيد من الثواني الضائعة في واقعي الحالي ما هو إلا مضيعةٌ للوقت وانتصار للزمن، وأنا هنا لأصنع انتصاري التاريخي الأول على الزمن، لا مجال للخطأ أو التقاعس.

أنا هنا لكتابة القصة المثالية، ولن يقف أمامي حائلٌ أو سد.

لن أودعهم قبل قفزتي للمجهول، سأترك كل شيء ذاهبًا نحو المجد.

قلت مبتسمًا:

ـ أبرا كادبرا، محركًا يدي محييًا لجمهورٍ خفي، أغمضت عيني، واختلط الواقع بالخيال.

هاجمتني الهلاوس، رأيت نفسي أقتل جنديًا وسيمًا له جناحين في برجٍ ما، حاوطني البوم واقتات على جسدي حتى لم يبقَ مني إلا عقلي، ثم بدأوا في تركيبي من جديد، ووهبوني جناحين من ورقٍ أصفرٍ مكتوبٍ عليه بشكلٍ عشوائي، عينوني ملكًا عليهم، ملك البوم يبدو اسمًا جيدًا لرواية، هربت من

عدة أقلامٍ تطاردني، رقصت طربًا وسعادةً بالجناحين تحت مطرٍ من حبرٍ أزرق، شعرت بدوارٍ رهيبٍ يسحبني نحو الأسفل في دوامة من اللون الأصفر الكريه، حاولت العوم ضد التيار والهرب، رأيت نسخًا مني تفعل مثلما أفعل، ويضحكون في جنون، هرب من نسخي ما يكفي لصنع عالم جديد، وبقيت أنا أدور وأدور، تضرعت للألوان الأخرى، ولكن الأصفر كان ممتدًا على مرمى بصري، يغطي السماء والبحر والأرض، كأنه قد صار هو اللون الوحيد كوباءٍ لعين قتل كل الألوان، دعوت أن ينتهي هذا الكابوس؛ ففقدت الوعي، وعدت في لحظة بمكانٍ غريب، مكان لن أود الذهاب إليه حتى لو من أجل قصة، البرج الذي قتلت فيه الجندي الوسيم.

بدأت في ملاحظة المكان الجديد وظروفه المختلفة، أحدق مشدوهًا للحوائط الترابية الكئيبة والمشوهة بجميع الأشكال من قِبل جنودٍ ظنوا أن الصبر أو الخلاص قد يأتي لو قاموا بكتابة تاريخ ميعاد التسريح فوق حائط البرج، أو نقش أسمائهم وأسماء أصدقائهم بخط قبيح، سيجعل للمكان بهجةٍ ما أو سيعطي لذكراهم قيمةٌ إضافية.

جسدي محطم، مغطى بحبات العرق نفاذة الرائحة حارقة الملمس، في رأسي صداع يشعرني بعدم الاتزان، كنت جالسًا أرتدي الزي الكامل لجنديٍ مقاتل، خوذة ثقيلة من معدنٍ صدأ الغرض منها حمايتي عند سقوطي في النوم لكي لا ترتطم رأسي بسور الدروة، وأيضًا إصابة جنود الأعداء بضحكٍ ثقيل قد يؤدي للوفاة، وواقيًا للرصاص قد يصمد أمام عدة هجمات من مسدسِ طفلٍ صغير ولا أعتقد بأنه قد يصمد كثيرًا، وأخيرًا سلاح عتيق يبدو لي أنه يعمل بالجاز والبطاريات، لا يصلح لقتل عصفور مكسور الجناحين، وكل تلك الأشياء اشتركت في نفس اللون.

البرج....
سور البرج....
ملابسي....
حذائي....
واقي الرصاص المهترئ....
الخوذة المغطاة بالثقوب....
السلاح....
والأرض المحيطة بالبرج من كل الاتجاهات، المباني داخل الأسوار العالية المحبوس خلفها أنا.

شعرت بغصةٍ مؤلمةٍ في حلقي وأخرى في قلبي، احتضنت سلاحي مذعورًا، وأنا لا أعرف كيف أستعمله؟ باحثًا في معدنه الساخن الذي قارب على الصدأ عن بعض الأمان، خيل لي عقلي كيف سأقتل؟ رجوت الله أن أجد ما أبحث عنه وناجيته، ولم يتوقف جسدي عن الارتجاف حتى بعد المناجاة.

مر الوقت ثقيلًا، أنتظر عودتي لغرفتي ومنزلي، ولأبي الصامت وأمي القلقة وأخوتي، تذكرت فتاتي المستحيلة، جلدت نفسي مائة مرة لأسبابٍ عدة، ثم بدأت في الغناء بصوتٍ أجشٍ لا يخلو من المشاعر لكي أطمئن، ظننت أنني بقيت هنا دهرًا ، سمعت صوتًا يأتي من ناحية باب البرج، أحدهم يصعد، وجهت سلاحي ناحية الباب وارتجفت.

إنه الموت

طلع لِيَّ رأسٌ لشابٍ أسمرٍ مغطى بالتراب، حفرت القسوة في وجهه أخاديدَ ووديان، تأكدت من أنه الموت، انتظرت اكتمال صعوده حتى وقف كاملًا

أمامي بجسده العريض يسد عني ضوء الباب، لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل؟ وجلست منكمشًا حتى نطق بلهجةٍ صعيدية محببة للنفس:

ـ أعذرني يا أخويا، أتأخرت عليك، بطني وجعاني من إمبارح.

تنفست الصعداء على رغم من أنني لم أفهم ما يقصد، ولكن خمنت أنه يريد أن يبدلني، فأعطيته السلاح مترددًا وبقية الأغراض ثم خرجت.

ـ رايح فين يا أبو عمو من غير النضارة؟!

نظرت نحوه، فأعطاني نظارة طبية بذراعٍ واحد، فأخذتها منه دون تفكير، ونزلت من البرج.

درجة الحرارة كادت أن تصل للمائة، لم أرَ بعد خروجي إلا الرمال والمباني ذات الطابق الواحد، الأفكار جالت في رأسي كالكلاب، لا أدري إلى أين أذهب؟ ارتديت النظارة فرأيت الجحيم كأفضل ما يكون بين حبات الرمل، وجدت الوجوه سمراء كئيبة ترقد وتزحف وأمامهم يقف ضابط بنظارة شمسية ضخمة تغطي عينيه، يعطي الأمر وبجانبه رجل في منتصف الأربعينات يملك أضخم شارب رأيته في حياتي ينفذ الأمر فيهم.

وقفت؛ لأراقب لثوانٍ حتى شعرت بكف صخرية تلطمني من الخلف، طارت النظارة من أمام عيني على أثر الضربة، وطرت معها، وصرت راقدًا بين المعذبين، ومع الضربة جاء الصوت بشكلٍ رجعي، وكان مختلفًا عن صوت (سحاب) يقول بلهجة ريفية قميئة:

ـ ارقد يا عسكري.....

فبقيت راقدًا حتى تمر العاصفة.

***

كان يومًا بسنة.
زحفت فوق جميع أنواع الأرض، فوق الرمال الملتهبة فامتلأ جسدي بالحروق وأثار الكوي، فوق أرض رملية مغطاة بحصى صغيرة تشرب دماء بطني، تغطيت بالجروح والعرق، وابتلعت رمالًا تكفي لبناء منزلٍ صغير أنا والراقدون من حولي.
ضُربت بالعصا فوق رأسي وكتفي وقدمي ومؤخرتي، تلقيت ركلة وأنا أحاول تسلق جدارًا أملسًا مستحيلًا تجاوزه، كادت أن تصيب أعضائي التناسلية، لولا أنني تفاديتها في اللحظة الأخيرة، فأصابت قدمي، وأحدثت لي شرخًا؛ فحمدت الله على ذلك.
لم يرحمونا حتى مل الضابط، وطلب منا أن نذهب؛ لنرتاح قليلًا ونأكل، ثم بعدها بدقيقة جمعنا، وبدأ حفلة جديدة؛ فلعنت الزمن في سري و(سحاب) ونفسي والكتابة.
المزيد من الرقد والزحف والضرب والإهانة ثم أطلقونا، ولكن هذه المرة دون كذب، عرجت بشكل واضح متألمًا من أثر الركلة سعيدًا لعدم وصولها لسلاحي الوحيد، اتجهنا مكتئبين ندعو الله، ونسأله الصبر نحو قاعة الجنود، فسمعت الذي على يميني يقول لي مواسيًا وهو يعطيني النظارة المغطاة بالرمال والدماء:
ـ احمد ربنا أنها مجتش فوق شوية، كان زمانك قاطع كهربا زيّي دلوقتي.
فضحكت معه، وربت فوق كتفه.
الطعام كان رديئًا بشكل لا يصدق، خبز عفن وفول صلب في بركة الماء الآسن، فنظرت متأففًا أبحث عن مخرج، فقال لي أحد الجالسين:
ـ إيه! مالك يا دفعة، هتاكل، ولا أجبلك وجبة كنتاكي؟

فأعطيته السرفيس ونفسي قد عافت الفول إلى الأبد، فأخذه مرحبًا.
ظننت أن العذاب سيمتد، وكأنني في الحلقة الثامنة للجحيم، لم أعد أرى الليل من كثرة التعب، كنا نام ونستيقظ على اللهجة الريفية السخيفة المتعجرفة والوجوه المغرورة التي ظنت أنها أعلى من الجميع، نفعل ما نؤمر، من يفكر بالتراجع أو التكاسل يلقي به الشاويش في أقذر وأسوأ مستنقع حتى يتعلم الانضباط والعسكرية كما يجب مثل ما يقول.
كدنا نسقط ونطلب الغفران من الله تأكيدًا على كلمة الشاويش (حسين).
ـ إنتو مجتوش هنِا إلا عشان أعمالكم السودا، أنا أعمالكم السودا.
مرت الأيام فوقنا كالقطار، اعتقدنا أننا سنظل راقدين ومهانين للأبد حتى أرسل الله رحمته علينا في هيئة دفعة مستجدة من الجنود، فاتجهت الأنظار الجائعة دائمًا نحوهم.
صرنا نشعر باللامبالاة ، نتحدث بصوتٍ هامسٍ عن أمورٍ دنيويةٍ شتى أثناء فترة رقودنا التي أصبحت أقل، والدفعة الجديدة ستتألم كما لم تتألم من قبل حتى يصلوا لمثل شعورنا، وتأتي دفعة أخرى وهكذا للأبد.
الأيام صارت بعد ذلك محتملة، بعد أن فقدت كل وزني وبرزت عظام وجنتي، وقتلت قتلًا في مشاعري، لم أعد أشعر بالحزن أو الفرح، التعب أو الراحة، المتعة أو الإثارة من أي شيء، فقلت لنفسي: إنها ضريبة مقبولة لأشياءٍ عدة.
عرفني الجميع بنظارتي المكسورة، اندمجت معهم أو حاولت؛ فتعلمت منهم الألفاظ والكلمات الغريبة، كالميس وسريعًا مرش وشد الخدمة ورفع التمام والتنفيذ، واعتدت الشاي الميري واللهجة الريفية للشاويش (حسين)، وهو يقول لنا بسماجة:
ـ نضف السلاح ياعسكري.

حاولت الاختلاط أكثر، بادلتهم الشاي والخبرات الجديدة عنهم، وبادلوني الاحترام، فصرت أحد الأسباب الرئيسية لحل النزاعات المقامة على شرف اسم ممثلة مشهورة أو لاعب كرة محترف، لم يهتموا بمعرفة اسمي فنظارتي كانت علامة كافية ليعرفوني، جلست معهم بعد كل خدمة وعمل، شاركتهم أحلامهم الساذجة عن قطعة أرض صغيرة تصلح لبناء منزل صغير فوقها للزواج أو السفر للخارج، غنيت معهم أغانيهم الغريبة واستمتعت، وعندما قررت أنا أن أغني دمعت أعينهم بسبب ما غنيت.

"ياعزيز عيني أنا نفسي أروح بلدي".

مسلون، راضون عن أنفسهم، يأملون أن يأتي الغد سريعًا؛ ليرحلوا من هنا على الرغم مما يدور في أعماقهم، وهو أنه لا أحد يخرج من هنا واقفًا فوق قدميه.

وجدوا أنفسهم منذ زمنٍ بعيد، يعرفون ما الذي عليهم فعله لينجوا من الحياة، متصالحون ذاتيًا مع أنفسهم ويرضوا بأقل القليل. شعرت بالحيرة والضياع، وتساءلت هل أساوي شيئًا بجانب رجلٍ قد وجد نفسه؟

رددت سؤالي، والتصقت بهم أكثر لعلني أجد نفسي مثلما فعلوا.

هربت من رغبتي في الاستسلام وتسليم الأمور ل(سحاب) والقفز عبر الزمن بالحديث. الحديث دائمًا لم يتناول العديد من الموضوعات، في وقت الراحة تحدثوا عن ثلاث: كرة القدم.. العطلة.. الجنس، وخصوصًا الجنس. كانوا يتحدثون عنه بعد كل صلاة، كل طابور، كل خدمة، كل ما يمت بصلة للأشغال، ثم يغيرون الحديث قليلًا، للتحدث عن العطلة، وعن كم الجنس الذي سيمارسونه في العطلة، وفي الأغلب ستنتهي العطلة في الطعام والشراب وراحة الجسد والنوم.

طالت الأيام، أحببت البرج، ولكن لم أستطع التأقلم مع اللون الأصفر، نقشت رقمًا فوق جداره بدون سببٍ يذكر، كتبت الأربعة مشوهة، ولكن مقروءة، والستة بجانبها واضحة.

رقم 64 يعبر عن حياتي السابقة، لسببٍ ما لا أعرفه يذكرني الرقم بالكمال.

أذكر كوني معترضًا على فكرة الكتابة فوق الحائط مثل السابقين؛ لظني بأنني قد أكون مختلفًا عنهم، لكنني لم أكن مختلفًا عن أي شخص، لم أكن محورًا للكون أو كوكبًا عاشرًا أو حتى كارثة عالمية، أنا فقط لا شيء.

أحدق في الرقم بالساعات، أتأمله، ثم ألقي بنظري من نافذة البرج الضيقة حتى تنتهي الخدمة، وأذهب إلى محرابي الخاص، آخر بقعة في أرض الكتيبة لأرى الغروب أو الشروق أيهما أقرب، وأتمنى من الله أن يرزقني ببعضٍ من الخيال الواقعي.

قبل مجيئي إلى هنا كان خيالي يكفي لإشباع العالم، أحب أفلام الوحوش والأساطير، ولكن أشعر بحنينٍ خفي لأفلام الدراما، لا أجد نفسي بطلًا في قصة أسطورية، وأبحث عن كوني بطلًا سخيفًا في روايةٍ رومانسيةٍ من ألف صفحة، وبعد كل أغنية لأم كلثوم أحدق في النجوم، وأخاطب ربها متضرعًا:

ـ افرجها ياباسط، افرجها ياكريم ببعض الخيال.

أجد نفسي أخلق عوالمًا جديدةً، ومخلوقاتٍ خارقةً، وأبطالًا رائعين دون أي مجهودٍ يذكر، وأتعثر عند كتابة الجملة الأولى لأمرٍ عادي أو منطقي، مما أدى لوصولي لهذه اللحظة العالق فيها حتى الآن محدقًا في خطوط أشخاصٍ آخرين متصالحين النفس.

سألت نفسي: لماذا أحب الدراما أكثر من الخيال رغمًا عن رفضي الشديد للواقع؟

قلت: لأنني وجدت نفسي في الدراما، ولم أجد نفسي في الواقع أو الخيال.
بدأت في النبش عن ذكرياتٍ سيئةٍ؛ لحاجتي للبكاء قليلًا.. أو بشدة لا أدري حقًا، تحدثت مع نفسي، رأيت أشباحًا تحوم حولي، منهما شبحُ (نوره) بابتسامتها المميزة ورائحتها الملائكية المكونة من عطرٍ فرنسي وتبغٌ أجنبي، حاولتُ عناقها، فرحلت كما رحلت في ملايينٍ من المرات السابقة من محاولات استرجاعي لها، أبت الدموع أن تأتي فغضبت، ثارت أعصابي فجأة لظني المفاجئ أنني سأبقى بين الأبراج للأبد واللون الأصفر ولهجة الشاويش (حسين) السمجة المضحكة أحيانًا أثناء أوقات الفراغ.. وطبعًا العكس بقية الوقت، مرت الساعات بسهولة هذه المرة، وجاء زميلي؛ ليبدّلني، فظننت أنه الخلاص حتى قال أن كل ما نحن فيه الآن هو مزحة كبيرة، اشتغاله ضخمة، قبل أن أفهم وجدته يخرج رأسه من النافذة وآخر ما قاله:
ـ الحياة مزحة ثقيلة
قبل أن ينفجر رأسه من الرصاصة.
لم يدم التحقيق أكثر من دقيقة، دفنوه دون أن يسألوا عن الذي حدث، اعتبروني محظوظًا، تمنى البعض لو أصابتني الرصاصة بدلاً عنه لكونه صديقًا لهم، بعد انتهاء المراسم تركت قصاصة بجانب قبره مكتوب فوقها
الحياة مزحة سخيفة
ورحلت أشعر بالحزن والهم.
باتت الأيام كئيبة أكثر من ذي قبل، آمنت أنه لا أحد يخرج من هنا سليمًا، سيتم تحطيمنا كلنا دون استثناء.
بعد أن اعتزلني زملائي، عادوا مجددًا للجلوس حولي، شاعرين بالذنب؛ لأنه ليس لي دخلٌ بمقتله، بدأوا في حكي القصص لساعات، وأنا كل ما فعلته هو

الاستماع، لعلني أجد ضالتي، وأرحل عن هنا، شعرت بعد حكايتهم بهذيان وتعب، حلمت بشابٍ يقتل مكان جلوسي في البرج، استيقظت في اليوم الذي يليه، وأمسكت بالقلم، وتنهدت خائفًا من محاولتي القادمة ثم كتبت الحروف الأولى للقصة المنتظرة.

كيرا الباكي

في شارعنا القديم.. ظهر (كيرا) من العدم.

لم نعرف عنه أي معلومات سوى أنه ابن العجوز الشمطاء بائعة السمك القاطنة في العمارة النحاسية بالدور الأرضي.

شعرنا بالدهشة، كيف يمكن لعجوزٍ شمطاءٍ مثلها أن تنجب مثل هذا الملاك الجميل؟!

كنا نتجنبها طول الوقت، كانت تشعر بحالة شك عنيفة ناحية كل ما هو حي، نراها جالسة خلف النافذة ذات القضبان النحاسية، تراقب الجميع بوقاحة، وترقب كأنها تخفي شيئًا ما. وفي الآونة الأخيرة كنا نسمعها تضحك في الساعات الأخيرة من الليل حتى خرج (كيرا) من بيتها.

نذكر ذلك اليوم جيدًا؛ لأنه من الأيام القليلة التي شعرنا بها بالحياة، فيومها لم تنقطع الكهرباء منذ بداية اليوم وصولًا لنهايته، ضغط المياه كان رائعًا، وكانت هناك احتفالات صغيرة في شرفات المنازل مع تصاعد بعض الضحكات الخليعة من آنٍ لآخر صادرة عن نساء شارعنا.

رائحة الزهور حاوطتنا بشكلٍ ما، واختفت رائحة المجاري والطماطم الحامضة، ظللنا منبهرين بالشعور الجديد علينا، وهو أننا بخير قبل أن نجده وسطنا ينظر لنا ببراءة، ويطلب منا أن يلعب معنا الكرة.

ظلت ملامحه غير مصدقة، كأنه لم يكن يعرف أنه هناك قرناء يشبهونه في نفس السن؛ فأعطيناه الكرة؛ ليلعب معانا ولم نهزأ منه أو نهاجمه. لم نصرخ به أو نسبه لعدم فهمه لأبسط قوانين اللعب، بل تسابقنا لنعلمه ونريه الطريقة لكيفية ركل الكرة، وسعدنا لوجوده وسطنا.

كان جميل الروح قبل الشكل، طاهرًا، حائرًا، يعرف عن العالم بشكل نظري، ذكاؤه الاجتماعي يساوي صفر، على الرغم من محاولاته الساذجة ليقترب من قطيعنا مع مرور الوقت.

أمه ظلت تبكي لأيام على سرها المكشوف الذي حافظت عليه لمدة سنوات، وكان تتردد بأنهم سيأتون لأخذه عاجلًا أم آجلًا.

***

حينا كان فقيرًا، يكاد يكون معدمًا، تنقطع عنها الكهرباء والماء بالأيام، اختفى لون الأسفلت منذ أعوام، وصار ترابًا، وأحيانًا يصبح التراب طينًا قبل أن يغطى بالمياه العفنة المتراكمة من الصرف الصحي الذي يغرق منازلنا كل يوم. نسيتْنا المحافظة، وأخرجتنا من حساباتها تقريبًا، ولم يجد أجدادنا حلًا سوى المقاومة والحفاظ على بقائنا بأنفسنا.

تشابهت ظروفنا، فصرنا متشابهين، نختلف في بعض الأحيان ولكن مترابطين، نسعد لنفس الأسباب مثل أن تكون المياه نظيفة، وأن ينجح أحد أبناء الحي في ستر إحدى بنات نفس الحي، نحب لعب الكرة بعد كل صلاة، وبعد أن ننتهي نتحدث عن لاعب جديد له مستقبل أو سعر أحدهم المبالغ فيه، ثم يذهب كلٌ منا في طريقه؛ ليأتي بقوت يومه آملين أن نلتقي من جديد كاملين العدد، ولا مانع من أن يحلم أحدنا بتلفازٍ ملون غير تلفاز عم (سعيد) الأحمق.

أما (كيرا)، فقد كان ينتمي لمكانٍ أخر لا نراه إلا في إعلانات تلفاز عم (سعيد). ذكرني بأبطال الأفلام، بشرته بيضاء لا يشوبها إلا بعض الحمرة الرقيقة، شعره مصفف وناعم للغاية، جسده يبدو عليه الصحة، ولا يسيل دمًا كل خمس دقائق.

قربناه منا توددًا ورغبة منه، البعض منا كرهه، ولكن لم يعترضوا أبدًا على ذلك.

مرت الأيام حتى جاءت حملة أخرى من حملات التجنيد الإجباري.

***

لم يأتوا منذ زمن بعيد لمعرفتهم بمرضنا وهزلنا. كنا أقرب للموتى لهم، ومع ذلك جاءوا لأخذ (كيرا)، وليس لأحدنا بالطبع.

جاءوا بسيارتهم الضخمة وملابسهم المموهة السوداء وبياداتهم اللامعة غير المكترثة لأرضِ شارعنا، حدث الهرج والمرج، الباشا الكبير كان يعرف من سيأخذه بالتحديد وسيرحل، ركض الناس في كل مكان هربًا من بطش الجنود وتشاجرنا معهم ليهرب (كيرا)، ولكن لم نكن مسرعين بما يكفي.

أخذه الجنود في استسلام تام منه، صرخت أمه بنا وترجّتنا ألا نتركه، خشينا من عصيهم الكهربائية وبنادقهم، منظره تحت أعين أمه المذعورة وهو مكبل وذاهب بسلام نحو العربة كان رهيبًا، الشارع بالكامل كان يشاهد عملية اغتيال آخر شيء جميل في حياتنا، وربما لن يأتي مثله لاحقًا، الذي أعطانا بعض الأمل بعد لعبه معنا وأكله من طعامنا ومشاركتنا لرؤيته الساذجة للأمور.

ومع اختفائه في ظلام العربة فقدت أمه نور عينيها، وماتت على الفور، ركضتُ نحو الباشا خلعت ردائي المهترئ، وأريته جسدي، وأنا أقول له في توتر:

ـ بص، بص سليم.. أنا أنفع، خدني معاه.

فأمر بإدخالي العربة مع (كيرا)، وآخر ما سمعته قبل أن نرحل هو أصدقائي يخبرون الباشا بنفس ما قلته، وهم يخلعون ثيابهم؛ ليأتوا معنا قبل أن أرى ابتسامة (كيرا) الممتنة، ويبتلعنا ظلام العربة معًا.

***

بقينا في العربة لساعات، ما بين تعرجات ومنحدرات وتوقفات عديدة تترك فينا التساؤل عما هو قادم. لم نكن أول المجندين بل كنا آخرهم، لم نكن وحدنا،

عددنا أكثر من العشرين بقليل.. بعد التوقف العاشر أشعل أحد الجالسين سيجارة، فتحفزت لقتال شممت رائحته مع رائحة التبغ المحترق، سمعت صوتًا مألوفًا يأتي من آخر العربية يطلب إطفاء السيجارة؛ لكي لا نختنق، فقوبل بالرفض، فبدأ الشجار فجأةً بين الاثنين، توترت وانتظرت اللكمة الأولى التي ستطالني أو ستصيب أحد رفقائي لكي أقتل الجميع، ولكن اللكمة لم تأتِ نظرًا للظلام الدامس الذي منع القتال اليدوي، وزاد الألفاظ والشتائم.
صرخ صوت من حجرة السائق قائلًا:
ـ بس.. بس يابن الك** منك له أنت وهو وإلا هنزل أأكلكم التراب.
ولكن الشتائم ظلت تتطاير، ولم يهتم أحد بما قيل.
وفي منتصف الصراخ ورائحة الغضب والتوتر والعرق والأيادي المتشابكة من حين لآخر، سمعت صوتًا هادئًا يأتي من جانبي يقول:
ـ هو ماتش الأهلي الجاي يوم إيه؟!
صمت تام حدث في العربية والطريق والمحافظة والكوكب، صوحب بشخرة من أحد الجالسين، ثم ألحقها بجملة قائلًا:
ـ يا ابن الوس**..
وانفجر الجميع بالضحك.
ضحكة صافية من القلب، قال لي (كيرا) بعدها أنها ضحكة تشبه اللون الأزرق من شدة صفائها.
تصالحت الأنفس، وصار صندوق العربة الذي حبسنا فيه لعشر ساعات متواصلة يشبه حلقات السمر التي تكررت فيها جملة واحدة بسيطة وهي:
ـ إنت منين يابطل؟

***

وصلنا معسكر التدريب الشامل وحصلنا على العديد من الهدايا كالتشريفة الأولى، أكلنا فيها التراب والرمال، والتشريفة الثانية خلعنا ملابسنا باستثناء ما يستر عورتنا، ووقفنا لساعات تحت الشمس المسلطة فوقنا.

لم نأكل بعدها لأيام ولم ننم، أعطونا نصف ساعة للطعام الذي تشمئز منه الكلاب وللنوم، وربما لو أراد أحدنا الاستحمام.

عانينا من الإهانات والقسوة والضرب واللعن والعقاب، إلا أن ما هون علينا هو وجود (كيرا)، كان يقاوم بجانبي على الرغم من السؤال الحائر المطل من عينيه، وهو لماذا يحدث لنا كل هذا؟! فيجيبه أحد ضباط الصف من دون قصد:

ـ نفذ الأمر ياعسكري.

فنذعن جميعًا وننفذ.

اعتبرنا (كيرا) قائدنا فيما بيننا، كنا ننفذ ما يفعله دون تفكير، نتكاسل عن ما يهرب منه حتى يمل الضابط، ويبحث عن طريقة أخرى.

تمرغت في الوحل معه، وفي التراب الأصفر الناعم تحت شمس شهر أغسطس المميت، وفي الرمال الخشنة بحجارتها الصغيرة المدببة، ولم أشتكِ قط.

جميعنا لم نملك الوعي الكافي لإدراك معنى ما يحدث لنا معه، ربما تبعناه لأنه كان شيئًا بسيطًا للغاية في منتصف تعقيدات أنفسنا، كان تنفيذنا للأوامر التي ينفذها هو أمرٌ جيد يتبعه دائمًا شيءٌ نفتقد له مثل الراحة لساعات أو مشاهدة بعض التلفاز.. والعكس إن تكاسلنا عن أمر يرفضه هو ينقذ الكتيبة من أمرٍ جللٍ أو حادثٍ ضخمٍ قد يؤدي لمقتلنا.. وبالطبع التقدير كله يذهب للضابط رغم أن كل التقدير يجب أن يذهب إلى (كيرا)، ولكنه لم يهتم ونحن أيضًا؛ لأننا نعلم من داخلنا من السبب في ذلك.

مر الوقت، وانتقلت مجموعة العربة لكتيبة مختلفة، وظللنا فيها بشكل ثابت.
حاولنا الانخراط مع الرفاق الجدد، مجموعة من أسوأ أنواع البشر.. لا يملكون من يبكون عليه، جاءوا أملًا في بعض الطعام والمنحة الموعودة وربما الترقية.
بعد مرور الأيام أحبونا، ولم يحبوا (كيرا)؛ لأنه أثار بهم شيئًا لم يدروا بوجوده بداخلهم.
أرسلونا في أول مهمة لنا لمكان يدعى (بؤرة حرب)، كنا عشرة، ثلاثة منا.. أنا وكيرا وصديقي وسبعةُ منهم فيهم قائدنا المرتجل.
بمجرد وصولنا تم أمرنا بضرب الرجال تحت أنظار النساء والأطفال، ترددنا للحظة، ثم أطلقنا الرصاصات لعلمنا أنه لو رفضنا الأمر سنعدم، كلنا أفرغنا الرصاصات إلا (كيرا) الذي ظل يردد هذه قريةٌ بريئة.
انتهينا، وأصبحنا ملوثين بالدماء والذنوب، صمت (كيرا) ولم نسمع إلا صوت لهاثنا، وظل صامتًا حتى وصلنا للكتيبة.
حدث صدْعٌ كبير بيننا وبين (كيرا)، كأن ما حدث عندها أشعر بعضنا بأنهم أقل شأنًا منه، وخصوصًا أنه الوحيد الذي لم يُلوث بالدماء.
الاختلاف يؤدي إلى الكره.
الارتطام كان آتيًا لامحالة.
تعلمنا في شارعنا أن كل ما هو مختلف عنا شر، الرجال الأغنياء شر، البشرة النظيفة شر، الملابس السليمة شر، لذلك كل من حاول الاقتراب منا سواء لشخصنا أو لمكاننا كنا نكسره ونهينه جسديًا ونفسيًا.
إلا أن..
(كيرا) كان مختلفًا عنا بشكل يقربه منا، ففي النهاية فهو من نفس طينتنا، لذلك كرهوه، وأرادوا قتله بعد حادثة (بؤرة حرب)

أعطيناه أجمل ما أخذنا.. من أحذية عسكرية ممتازة وفراشٍ مريح وملابس مهندمة. حاولنا أن نحمي شعره من القص ولكن فشلنا، بكى بشدة عندما قصوا له شعره كأنهم كانوا يقصون له جناحيه فقصصنا شعرنا مثله مما أعاد الابتسامة لوجهه.

البصاصون كانوا بيننا دائمًا، يراقبون الجميع ويراقبونه، بسببهم شك القادة أنه يحاول القيام بتنظيم داخل الجيش؛ ليقلب الطاولة عليهم، ولكن مع مرور الوقت وزيادة عدد الفئران بيننا لم تتكرر إلا جملة واحدة وهي:

ـ ده عسكري غلبان، كل اللي بيعمله في حياته إنه بيعيط.

حاولوا منعه عن البكاء، جعلوه يتقاتل مع الكلاب الشرسة، مزقوا ظهره أمام أعيننا مما أزاد من بكائه حتى ملوه وتركوه لحاله.

الأحداث كانت قليلة قبل أن يرسلوننا لأرض المعركة، الحياة كانت مختلفة هناك.

حمدت ربي أنني ذهبت معه؛ لعدم علمي بكيفية النجاة من دونه. فالحال كان أفضل، الإصابات صارت أقل، صوت الرصاصات انعدم، وارتاحت النفوس ثم تم نقلنا لمكانٍ آخر، فانهار المعسكر تمامًا، جاء الإرهابيون وفجروا أنفسهم عند الجبهة الغربية في غفلة من الجميع والخسائر كانت غير معقولة، وكل هذا حدث بعد رحيلنا بعدة ساعات.

الحياة في أرض المعركة تختلف عن الكتيبة، فكنا نأكل ونشرب تحت الرصاصات المتطايرة، وبين أشلاء الجثث والدم الطازج وشظايا المتفجرات حولنا. كانت أرض في منتصف العدم، مناسبة لعمليات القتل العشوائي ضدنا من الإرهابيين، ولكن ما طمأننا قليلًا وجود (كيرا) بيننا.

***

قال لنا أحدهم في جلسة سمر:
ـ صاحبكم ده مخبول أو معتوه، مش مدرك اللي بيحصل حوالينا، كل يوم واحد فينا بيقع زي الدبان بضربة مدفع ولا رصاصة قناصة وهو مبتسم، بيحاول يخلينا نحارب أقوى وبحماس وهو مرفعش بندقيته لحد دلوقتي، بنتكلم عن الموت والبنادق والرصاص والحرب هتنتهي امتى، وهو بيتكلم عن قصائد نزار وأغاني أم كلثوم، نستخبى من الطيران وهو كل اللي شاغله ماتش الأهلي الجاي. فيه ناس مننا شاكين إنه ملبوس؛ لأنه بيخرج منه حاجات زي اللي بتطلع من الأنبياء.
دموعه بتخلي الأرض تنبت ورد، دمه بيتحول لياقوت أحمر، بيقدر يعالج المصابين منا في لحظة، ولو رمى طوبة لازم تيجي في هدفها..
افتعلت التأثر، ثم بعدها سخرت منه بشكل مفتعل بعد أن لمحت الجشع والرغبة في القتل في عينيه وأعين باقي الرفاق، وأطلتَ من سخريتي منه ليتناسى الجالسون ما حكاه، إلا أن الأوان قد فات عندها.
ما فعله أعطى العديد من الأسباب لهم لكي يقتلوه، ومثلًا قوله بأنه ملبوس سيكون عذرًا مناسبًا جدًا للضباط وأقل ما سيقال هو: (كان بيعمل حاجات غريبة يافندم، وحاول يعضنا بليل وإحنا نايمين)
لن يعاقبوا على قتله بيومٍ واحد، فصرنا منذ ذلك اليوم لم نفارقه أبدًا، لازمناه كأننا حراسته الخاصة. فوهات مدافعهم صارت تتجه نحوه بشكل يبدو لنا أنه دون قصد، وبدا لنا عندها أنها لن تعود نحو الأعداء إلا بعد قتل (كيرا)، ولم نعرف إلى متى سيمكننا حمايته.

***

قبل الليلة المشئومة جلست مع (كيرا) وهو يبكي، فانتظرت حتى يهدأ فأعطاني جوابًا وعانقني قائلًا:

ـ اقرأه عندما يحين الوقت.. عدني بذلك.

في الليلة التالية، كانت القوات جميعها بالخارج، لم يكن هناك سوى أنا و(كيرا) وصديقٍ آخر. كان الدور قد أتى على (كيرا) ليحرس إحدى الأبراج. جلست خائفًا من أن يحدث شيء بعد حديث ليلة أمس. ثم بعد مرور الوقت هدأت قليلًا، وذهبت لأحضر الشاي لي وله، وعدت فوجدت الرفاق قد عادوا ووقفوا يشاهدون الإرهابي الذي حرروه يصعد إلى برج كيرا بكل أريحية وهو يحمل سلاحه ويدخل له ويقول بصوتٍ عالٍ وأجش:

ـ اتشاهد يا دفعة

و دوت الرصاصات.

لم يأخذوا الكثير من الوقت كي يصعدوا؛ لظنهم أنهم الآن صاروا قادرين على جمع الياقوت الأحمر دون تعب، ألقيت بالشاي وأخذت سلاحي وصعدت خلفهم وأفرغت كل ما معي من رصاصٍ فيهم.

ثم جلست في سكينة أقرأ خطابه.

"العالم مؤلم بشدة.. شروره تطعنني في كل ليلة، هل تعرف شعور أن تستيقظ على صور المعذبين في الأرض؟ أن ترى كل فتاة يتم اغتصابها من قِبل الجنود، والأسرى الذين يُذبحون كل يوم من قِبل من يظنون أنهم يد الله، الجنود يظنون أنهم يحاربون من أجل الله، والأخرون يظنون أنهم سيف الله، والله برئٌ منهم حتى نلقاه، أنا أحارب هنا إجباريًا، ولكني أحارب المشاعر الميتة التي قتلتها الحرب، والمشكلة أنني أحارب من أجل أناسٍ ماتوا منذ زمن بعيد.

يبدو أن معادي اقترب.

قالت لي أمي إن الموتى يسمعون صوت من يحبون آتيًا من السماء لو كانوا ذاهبين إلى الجنة، أما الذين يذهبون الى النار فيسمعون لغوًا لأيام أو لشهور.
أنا سعيد بسماع صوت أم كلثوم.
أخبرتني أمي أنني أشبه الملائكة.. لم أعرف شكل الملائكة، ولكن تخيلتهم يشبهوننا، ولكن بأجنحةٍ بيضاء، بحثت عن أجنحتي بعد ما شبهتني أمي بهم ولم أجدهم؛ لذا دعوت الله أن يرسل لي جناحين وسأكون فتى صالحًا.
أنت شابٌ صالحٌ مثلي، ستعيش؛ لترى أحفاد أحفادك.
أراك في مكانٍ آخر بعيدًا عن الدمار والحرب.

***

رتبت الورق وأنا أنظر إليه مبتسمًا، وضعت بعض الكلمات، وشطبت بعضها، ثم كتبت اسم القصة بخطٍ عريض وكنت راضيًا عن نفسي بشدة، وقررت الخروج من هنا بعد أن حصلت على ما أردت، في لحظة وجدت نفسي داخل غرفتي.
تركت الزمام ل(سحاب) وألقيت بنفسي فوق الفراش وغبت عن الوعي.

***

سحاب يتحرر

ظننت أنه سيبقى مستيقظًا إلى الأبد، كانت هذه المدة الأطول التي استطاع فيها كبحي بعيدًا عن واقعه.

افتقدت للحياة وللنور، شكله تغير عن السابق، ضرب الوهن عينيه، صار جسده نحيلًا يفتقد للحيوية، وكل هذا من أجل قصته اللعينة غير القادرة على إحداث تغيير.

تأملت أوراقه، وأغراضه السخيفة المحتفظ بها احتفالًا بمرور الأيام السيئة التي تركت أثرها على جسده ونفسيته.

كم أكرهه! أشعر بالشفقة من أجله وأكرهه، لا يملك الآن سوى قلادة صدئة وساعة خربة وحياة منهارة وبعض الأوراق الغارقة في الملح الناتج عن عرقٍ سائل لأيامٍ عدة.

قرأت القصة السخيفة، سخرت منها ونقدتها بعين الخبير الهدام.

قصةٌ مملة، توقعت نهايتها من قبل المنتصف بقليل، لم يهتم بوصف مكان قصته إلا بكلماتٍ بخيلة، يكتب كأنه يريد التخلص من هم القصة أو بأن شعور العَجلة يسيطر عليه، ود لو استطاع صناعة مُخلصٍ جديدٍ سينقذ العالم من دمار الحروب والنفوس الشريرة، نظرته ساذجة للعالم الخارجي، يحكي عن معاناة بعض الأشخاص في "جحيمه الأصفر" الذي ما هو إلا عبارة عن صحراءَ معمورةٍ بأبناء جنسه.

قبل الحصول على قوتي كنت في عالم التيه الغارق في الحروب والنزاعات، نتضرع بصوتٍ واحد لآلهتنا المختلفة أن تنتهي الحرب، أو تأتينا القوة؛ لكي نرحل عن هنا دون أن يُسمع عَنا.

اختبأ العاديون منا في ظلام المباني المهدمة وداخل جوف الأشجار حتى تمر الدوريات.

أشجارنا لم تكن مصدرًا يأتي منه الخير، تمر الأيام الأولى في سلام قبل أن تبدأ الشجرة في التكيف على حرارة أجسادنا، فتظن أنه أحد الحيوانات الغافلة فتغلق كل مسامها وتتحول الشجرة لفرن رهيب لا يمر به نسمة هواء، نعاني لفترة قبل أن تبدأ المرحلة الثانية، تتأكد الشجرة من أن الدخيل القاطن بداخلها قد صار غير قادر على الحركة من شدة الوهن، فترسل علينا حشرة صغيرة في حجم عقلة الأصبع، كان السابقون منا يستخدمونها كنوع رخيص من المخدرات أيام السلم بالطبع اسمها حشرة (منتارو).

سُمُّها لم يكن قاتلًا، في الأوقات العادية كان تؤدي للهلاوس لفترة وجيزة، ثم يذهب أثرها دون أعراض انسحاب أو صداع.. هذا في حالة السلم.

أما مع الحرارة الشديدة وقلة الهواء، فيكون التأثير مميتًا لبعضٍ منا، ومن ينجو لا يعود أبدًا كالسابق من هول الخيالات.

عرضها الأول هو النوم، ثم تختلط الأحلام بالواقع، ولا تعرف أين الحقيقة؟ ترى الأشياء مغلفة باللون الأصفر فتظن أن الحرب قد انتهت وأن الألوان قد عادت حتى تحاول لمس الأشياء فتخسر ذراعًا أو إصبعًا؛ لأنك تلمس باطن الشجرة التي تكون قد بدأت في فرز عصارتها لهضمك.

تتعالى الضحكات بدلًا عن الصرخات، تقتلنا الأشجار بأحلامنا ولا ينجو إلا القليل، كلما زاد الألم كلما زاد الضحك قبل أن يحل الصمت بعدها ثم أصوات هضم راضية.

في بعض الأحيان –وكانت هذه حالتي– لاتستطيع الشجرة ابتلاع وقتل من بداخلها؛ فتلفظه من جوفها، وتنتحر في أحماضها.

حالتي كانت يرثى لها، جلست فوق ركبتي لاهثًا، رأيت الأدخنة المتصاعدة من حولي من فوهات الأشجار والسماء بنفسجية اللون التي شارفت على الاحتراق، سمعت الضحكات المختلطة بصوت لهاثي وصوت حوامات الدوريات، لم أقدر على التفرقة بين الواقع والخيال..

بحثت بطرف عيني كالمجنون عن اللون الأصفر؛ لأحاول معرفة مكاني، ولم أجد إلا لون النار الحبيب، فزحفت نحوها لألمسها وأنتحر قبل أن أفقد الوعي، وآخر ما شعرت به هو احتراق كف يدي وابتسامة لم تعد مطلقًا.

استفقت بعدها على الحقيقة الثابتة التي لا تتغير، وهي أنني قد صرت واحدًا منهم، ذوي الجناح الواحد.. الذين فشلوا في الوصول لضوء الشمس؛ لإسكات ألم عطشهم للمعرفة، وصاروا أنضج من السقوط نحو أرض الجهل فظلوا بالمنتصف.

لنا أسماءٌ عدة أسماها لنا البشر.

شياطين الكتابة.. الوحي.. الخيال.. الذكريات الكامنة في العقل الباطن عن أجداد أجدادهم.

كلها ألقاب لم تقترب لحقيقتنا، ولكنها تقرب المسافة بين عقولهم ومقدرتنا اللانهائية على إخراج أفضل ما عندهم، ولسوء حظي وقعت مع كاتبٍ ساذجٍ يبحث عن المتعة في جملٍ سرديةٍ يرضي بها غروره، وكأنه محور الكون، وكل ما يمكن وصفه خارج حيزه المحدود للغاية يتجاهله؛ لأنه لا ينتمي إليه، ولا يهتم بوصفه أو عرضه للعيان.

الزمن لم يكن مقياسًا لدي؛ لأنني هنا طوال الوقت، أراقبه، وأتحدث معه، وأعطيه أفكارًا جديدة لرواياتٍ تحتاج لقلمٍ جيد يستغلها.. أستطيع بأفكار جعْل الجيد يصل لرائع ومذهل ولكن لو كان الشخص مناسبًا.

لم يحكِ لي أحد زملائي عن المكلفين بهم إلا أنه بدا عليهم الرضا والسعادة، شعرت بأنهما نابعين من التفاهم بينهم وبين موكليهم، فلماذا إذًا وقعت مع هذا الأحمق العادي؟ لا أعرف.

خمنت أحيانًا أن لغتي تتوافق مع لغته، خلقه الله بعقلٍ كسول، ولكنه ذكي، يستطيع فهم الأمر أسرع من أي شخص بفرق لحظة، يحلل الأحداث، ويرى مليون توقع قد يتم في غضون ثوان، ومقوماته تصلح لكاتب أعلى من المتوسط بقليل، يملك وسامة نسبيًا، نحيف بشكل مناسب لأن يكون مغري، طوله يساعد على إظهار من وقتٍ لآخر أنه لو أهتم قليلًا سيكون شبيهًا للممثلين شبه المغمورين، ومحاولتي معه قد تجعله يرتقي لرتبة ممتاز، سأعطيه شهرةً أكثر ونساءً أجمل من الذين حصل عليهم بعد (سماء الغزلان).. هذا سقف ما سيصل إليه لو استمع إليّ، ولكنه بلغته المتوسطة وسرده العبثي يريد أن يصل لجائزةٍ وخلودٍ مؤقتٍ بعد الموت حتى لو نساه الناس ستتذكره الكتب والأرشيف والسجلات كما يظن، وهذا يجعلني لو تمكنت من غسل دماغه كليًا لفعلتها، ولكن للأسف لا أقدر على ذلك.

نظرت لورقه المجعد بغيظ، قرأت النهاية السخيفة عدة مرات، وقررت أن أحرق القصة كلها حتى لو ضحى من أجلها بسنةٍ كاملةٍ من دون نومٍ أو راحةٍ.. ثم قررت أن أفعل شيئًا أفضل؛ وهو ترك القصة كما هي، ولكن مع تغييرٍ بسيطٍ في النهاية.. تغيير قد يؤدي إلى جنونه أو انتحاره أيهما أقرب، ولن يشك للحظة بأنني الفاعل، وسيشك في نفسه وقلمه.

مزقت الصفحة الأخيرة من القصة، وكتبت واحدةً جديدةً بسخريةٍ، وقررت أن أريح جسده قليلًا دون أن أوقظه أو أعطيه الحرية؛ لأنني لم أشبع بعد، وأيضًا أريد الاحتفال قبل أن يستيقظ.

***

توجهت للشارع وحيدًا كما أكون عادةً، جائعًا للألوان والزحام، جلست في المترو أحدق في كل التفاصيل.. سحرني التنوع، ما بين الأحمر والأزرق والأصفر والبنفسجي.. أسرتني المؤخرات والنهود الصلبة منهم واللينة.. بعد أن شعرت بجزءٍ بسيطٍ من الشبع، ذهبت؛ لأشبع جوعي ناحية العالم بالجنس، اتخذت عالم النساء مهربًا مما أمر به، ربما كنت شيطانًا أو كائنًا سفليًا، ولكن أشعر وأحس وأفتقد وأحب وأنا افتقدت وجود جسدي -جسدنا- بين ذراعيّ امرأه تحبني.

ضاجعت العديد من الفتيات بشغفٍ أو من دون شغفٍ، طلبًا في المتعة أو النسيان وأملًا في أن ينتهي جوعي الشديد للحياة؛ لأن ما تغذيت عليه في السنةِ السابقةِ كان الرغبة في الموت من قبل نصفي الآخر الممل.

بقيت على هذا الوضع حتى نسيت كينونتي وهدفي المقبل بعد تعنته الشديد في كتابة قصته العادية، ولكن حتى بعد أن نسيت هويتي لم أستطع أبدًا نسيان (نوره)

حسنًا.. سأطلعك على سرٍ شخصيٍ.

ربما اختلفنا أنا وهو في كل الصفات، فهو روتيني وأنا متمرد، يعبد إله السرد ويقدس سرده، وأنا أحب وصف كل التفاصيل، يريد أن تستقر رأسه فوق كتف فتاة تعطيه الحب، ويعيش قصةً رومانسيةً ليكتب من أجلها ويكتبها وأنا كل النساء عندي سواء، لا فرق بينهما إلا في تفاصيل الجسد لأنه لايمكنني الإمساك بالمشاعر.. لم أرَ المتعة تتعرى من قبل لتريني صدرها، أو شخصًا يستطيع لحس رقبة السعادة، أو مص حلمة أذن الحزن.. أو هكذا كنت أظن حتى اعترضت طريقنا في ليلة حارة في بداية يونيو.

لم تساعدنا لغة العقاد، ولا وصف تولكين، ولا سرد الخمايسي لإدراكها. لم أرَ من قبل في عالمي قيمة مجردة مجسدة مثلها، كأن أحدهم استطاع الإمساك بحلمٍ جميلٍ وجسده لنا. شعرت بأن لساني قد صار عقدةً لن تفك إلا بواسطتها فقط، قالت لي بعدها أنني ظللت محدقًا نحوها لدقيقةٍ كاملةٍ.

لقد وقع (سحاب) في الحب هو و(كريم) كالسمكة التي قفزت فوق سطح الماء، وهبطت في فم بجعة، وانتهت للأبد.

انغمس في حياة مع النساء كلما أتذكرها، عرفتني جميع فتيات الليل الراقيات منهم والمنحطات، تكالبوا وتشاجروا على خدمتي رغمًا عن الجسد النحيل والأفكار الشيطانية المؤدية في معظم الوقت لفقدان شغفي وتركيزي في منتصف الأمر.

جاءتني العروض المختلفة.. المجانية والمخفضة، لم يستيقظ كريم من غفوته، ولم يستدعني؛ فظننت أنه قد مل اللعبة، وأخيرًا وصل لنفسه وارتاح للأبد، أحببت الفكرة، وانغمست أكثر في الجنس والعلاقات المحرمة.. لقبت بالعديد من الألقاب، وأقربهم لقلبي كان (المايسترو) قالته لي فتاة دامعة لاهثة من أثر المتعة، ورفضت أن تأخذ أي نقود، الحمقاء لا تعرف أنني كنت رائعًا لمجرد أنها كانت تشبه (نوره) التي أضاجع أي كائن حي يتحرك من أجل أن أنساها، وفي كل مرة عندما تحين اللحظة أصرخ باسمها مما يقضي على متعتي.

مع كل مرة أكون فيها مع إحداهن يغلي عقلي ويدعوني للكتابة، كرهت الرغبة والقصص والحياة، كل ما أريده هو الراحة بعد عام طويل من الحبس والغضب، ولم أصل إلى الراحة، ولم أصل إلى قصتي القادمة.

اعتذرت مئات المرات لكل من كانوا معي في الفراش، لاموني جميعًا على ذلك، ولم يفهموا فكرة أنني أحاول إهانة ذكراها في عقلي، ولم أقصدهن فأشعر بالكره

والسخط لإحساسي مؤخرًا بأنني صرت رقيقًا يهتم، وبأنني نسيت فكرتي الأولى والأساسية وهي حربي ضد العالم.
وفي لحظةٍ حزنٍ شاردةٍ مع إحداهن قالت لي:
ـ خليني أكون ليك (نوره)، وأوعدك بالجنة تحت رجليك.
نظرت لها ساخرًا، وصفعتها وبدأت معها نوبة أخرى من الجنس العنيف الذي وبمجرد انتهائي منها قالت لي بصوتٍ منتشٍ متألمٍ:
ـ هل من مزيد؟
فلها بعد شهورٍ من العبوس استعرت الرغبة ولكن للكتابة، وقفزت من فوقها ملهوفًا، أبحث عن ورقةٍ وقلمٍ؛ لأكتب قصتي قبل أن تتلاشى من مخي.

***

الآن صار لي اسم.
هل تحب القصص؟.
حسنًا لنفترض أنك تفعل.
خلق الإله الكون في حالة حرب، الزمن يمسك بسيفه، ويدور في حلقةٍ للأبد، والجميع من حوله يتقاتلون، خُلقت الكائنات محاربة لا تصل لمبتغاها إلا بالقتال، في كل ليلة تُخلق الملايين من القصص، لأنه كلما تزايد قتالك كلما تحسنت فرصتك للراحة في بيت السماء، ولكن هذه قصةٌ أخرى.
من بين كل هؤلاء المحاربين، كان هناك أحدهم، الأسماء لا تَهم سوى لأولاد الملوك لذلك لنتغاضى عن اسمه. كان محاربًا شجاعًا، ضعيف الجسد، يملك سيفًا أكثر حظًا وشهرةً منه هو شخصيًا، ويملك درعًا باهتًا لا يلمع كباقي الدروع، أخذه كإرثٍ عن والده الذي أخذه عن والده، لم يفكر في استخدام درعٍ جديدٍ؛ لأن عقله كان مشغولًا طيلة الوقت بكيفية هزم دائرة الزمن

المحكمة واللانهائية للحصول على اسمٍ يليق بأسطورته ونقشه فوق سيف الزمن دون الالتفات لدرعه أو أدواته.

هل مللت؟

جيد، لأن كل القصص عن هزم الزمن تبدو مملة، ولكن هذه قصةٌ مختلفة.

في بداية دورة الزمن الجديدة، تبدأ المعركة الأبدية، ينجو من ينجو ويموت البقية، وهناك البعض الذي يدخل في دائرة الزمن طوعًا أو إجبارًا بعد أن يختاره الإله للموت وللراحة قبل أن يخلقه من جديد فيها بعد، يدخل المحارب دون أن يفهم ويظل حتميًا تحت ظل السيف، فيظن أنه قد تفادى الموت للأبد قبل أن يطير السيف رأسه وتنفجر الدماء، ويكمل الزمن في دائرته دون أن يكترث.

تفانى ذو الدرع الباهت في حربهِ، كل طعنة سيف يطعن بها خصمًا له كان كأنه يطعن بها الزمن، حتى صارت علامته في الحرب السيوف المحطمة التي يشطرها نصفين بعد الانتهاء من نزاله.

أعجب به الإله، وأعطاه راحة من القتال؛ نظرًا لشجاعته وذكائه الحاد رغمًا عن علمه بهوسه الشديد بهزم الزمن، ولكن تحمس الإله لرؤية ما قد يفعله هذا الفتى الذي ليس له اسم، فأعطاه قدرًا بسيطًا للغاية من الحرية المطلقة.

شعر ذو الدرع الباهت بحريته لفعل أي شيء أو نهل أي قوة، ففكر في أن يسابق الزمن وسيكون فوزًا عليه لو نجح، شعر بأنه يملك سرعة البرق والرعد مندمجين، طاف العالم كله في لحظة.. ظن المحاربون أنه لم يتحرك من مكانه أساسًا من هول سرعته.

ابتسم وجلس ينتظر بداية الدورة الجديدة..

بمجرد بدء الدورة ركض ذو الدرع الباهت بجانب السيف حتى يصل، ولكنه سرعان ما أصيب بالإحباط؛ لأن الزمن كان يسبقه بخطوة خلال السباق، مهما

زاد من سرعته أو أبطأ دائمًا كانت هناك خطوة فارق بينهم. لم يفهم ما حدث على الرغم من شدة ذكائه، إلا أنه لم يستوعب فكرة نسبية الزمن، وأن الزمن يتكيف مع طبيعة وكينونة الكائن دون النظر لنوعيته. لم يستسلم على الرغم من خسارته للسباق، خطط من جديد.

السرعة لم تسعفه، فقرر اختيار القوة، صار يحلق برأسه بين السحاب.. حوّل جلده لأقوى نوع معدن خلق في عالمه، خطى خطوته الأولى، ووقف ينتظر سيف الزمن الذي سيرتطم به ثم سيتحطم، انتظر اللحظة، وتحمس بشدة، وتعلقت عيناه بالنصل المقترب بشدة حتى لمس جسده.

لم يشعر بالألم في اللحظة الأولى قبل أن يتحول النصل للهبٍ عظيمٍ، يشبه جحيم السموات المصنوع للجبناء وللمتخاذلين، شعر باللهب يخترق جسده الجديد كما لو كان مصنوعًا من المياه، ولم يشعر بنفسه إلا عندما أستيقظ، وكل ما يتذكره هو أن السماء تمطر دماءه، وأن نصف جسده العلوي سد ضوء النهار وهو يسقط هامدًا.

مرت دورات الزمن عليه دون أن يرفع سيفه، رسم ملايين الخطط لهزيمته ونفذها وكلها فشلت، شعر باليأس تحت أنظار الإله المستمتع بالعقاب العبثي الواقع فيه ذو الدرع الباهت على الرغم من القوة المهداة له.

اختفى حماس ذي الدرع الباهت، وظل هائمًا لا يعرف طريقًا يصل إليه، أو يمشي فيه دون أن يكون بحاجة للنظر لدورة سيف الزمن التي لا ترحم، مَل الإله منه، وأعاده للقتال، ثم تدريجيًا حرمه من قوته وحريته، صار قاسيًا بعد أن كان حازمًا، لم يعد يهتم إلا بإخفاء ألمه وحياته، أصبحت لا قيمة لها، تمر الدورات عليه في أرض القتال، يجر سيفه ودرعه ويصرخ للسماء:

ـ هل من مزيد؟ سأظل أقتل حتى أنتهي من الخلق، وسأصنع سيفًا من ملايين السيوف المحطمة، وسيصل لبيت السماء، وسأذبح كل المحاربين حتى لا يبقى أحد سوى أنا والزمن، ثم سأتحدّاه لقتال لأهزمه، وأصير أنا الزمن.

راق الاقتراح للكامن بالأعلى؛ لأنه يعلم التغييرات المستقبلية الناتجة عن الحرب، فجعل الأرض خالية إلا من الزمن وذي الدرع الباهت فتحداه، ولكن الزمن لم يجِبْ.

ظل يدور برتابة وملل دون أن يتوقف لرؤية الحشرة المتحدية له، شعر ذو الدرع الباهت بالإهانة واقترب أكثر، أخذ قراره، علم أن خطوته التالية ستؤدي لنهايته، فصل مقبض سيفه عن النصل، ودخل لنطاق الدائرة، كان يعلم أنه لن يستمر كثيرًا قبل أن يطير الزمن رأسه.

أيقن أنه مهزومٌ لا محالة، ولكنه لن يسقط دون قتال، حتى لا يظل منبوذًا لحين خلقه من جديد، أمسك بنصله بشدة جعلته يخسر إصبعًا، اقترب من جسد الزمن، ونحت فوقه جملة وحيدة، ثم تراجع مبتسمًا متأملًا انتصاره الوحيد الذي يليق مخلدًا لحظته لنهاية الدورات، قبل أن يطير سيف الزمن رأسه، ويظل مبتسمًا إلى الأبد ويستمر سيف الزمن دون أن يكترث.

* **

سررت بما فعلت يدي، رُسِمت الابتسامة على وجهي بشكل جعلني أشعر بالخجل، عانقتني الفتاة من ظهري وهي منبهرة ظاهريًا بالقصة وداخليًا بابتسامتي وغِبطتي.

قالت لي لاحقًا أنني كنت كلوحةٍ نادرةٍ لشخصٍ سعيدٍ.. آهٍ لو تعلمين حقيقتي ستختلف نظرتك عني للأبد.

أعطيتها عناقًا، ظلت تتمناه مني منذ التقينا، شكرتها بكافة الطرق على مساعدتها لي رغم أنها جاءت دون قصد، نسيت اسمها ومتى التقينا، ولكن لم أكن الجانب المهتم بالأمور العاطفية فلم أكترث لأن أتذكر.
قرأت القصة مجددًا بعد مرور وقتٍ قصيرٍ، لم أهتم بوصف العالم حتى أتركه غامضًا كما تخيلته، كل ما هو غامض مثير، حسنًا قد يظن من يقرأها أن (كريم) هو من كتبها لتشابه الأسلوب وهذا خطأٌ لا يغتفر.
بدأت الابتسامة في التلاشي من فوق وجهي تدريجيًا، تعكر صفو مزاجي من جديد، وعدت لسابقي، لاحظت الفتاة، وحاولت التهوين عليَّ حدة مزاجيتي، فارتديت ملابسي، وخرجت سريعًا للشارع أعبّ الهواء وكأن رئتاي قد خلقتا للتو. لماذا تحول مزاجي للأسوأ عندما حاولت إقناع نفسي بأنني كتبت مثله؟
الحقيقة الوحيدة التي آمنتُ بها هو أنني أكرهه بشدة مع علمي التام بأننا في قالب واحد، ولن يستطيع أن يتخلص أحدنا من الأخر، وأيضًا تميل كفة السيطرة ناحيته قليلًا لأن هذا جسده وعقله منذ زمنٍ بعيدٍ، أنا الدخيل، وقد جعلني هذا أمقته أكثر.
مسالم ولطيف.. خجول يستطيع بكلامه المعسول الإيقاع بأي شخصٍ.. ذكرٍ كان أو أنثى، يعرف كيف ينتقي كلماته من أجل الحصول على ما يريد، مصفف الشعر، مهندم الملابس يفعل كل حركةٍ بترتيبٍ ونظامٍ مملٍ، مخلص ومنتمي لأي شيءٍ يحبه.. سواء لشخصٍ يحبه أو حتى للعبةٍ بسيطةٍ، انتماؤه أحمقٌ مثله، ويظن أن به قد يحصل على سلامهِ النفسي واستقراره.
وأنا النقيض التام.
عدواني وقح.. ألقي بكلماتي كأنني ألقي تعويذة، لا أجد نفسي في حاجة لأي مخلوق في الكون، لا أهتم أو أرى إلا نفسي.. أعيش وكأن الدنيا قد خُلقت في

حالة حرب، مشعث فوضوي أشبه الموتى الأحياء، عشوائي أفعل كما أريد، ألقي النظام بعرض الحائط، لا أجد نفسي منتميًا لقلب امرأة أو لحبِ إحداهن إذا استثنيت (نوره)

أنا أرضٌ قاحلة أهرب من مياه إنعاشي كما لو كنت أهرب من الكلام المقدس. بالطبع ستميل الكفة نحوه وسيحبه الجميع.. وربما قد يستقر لاحقًا، ويضحي بكل ما أقدمه له مقابل فتاة يستلقي بين ذراعيها وطفلٌ يشبهها، وأنا لا أهتم على أي حال.

في بعض الأحيان أنسى مهمتي الأساسية من شدة كرهي له، وهي تغييره للأفضل، وجعله أعظم كاتبٍ للخيال خلق في جيله، لا أملك في شخصهِ شيئًا ولا أهتم. و على الرغم من شكي وقلة ثقتي في كل الأشياء وتقديم كلمةٍ ربما أنني أقول هذا بكل ثقة وبكل تأكيد، لن يستطيع أن يصمد، ولو لدقيقة من دوني، لن تكون كتابته تليق من دون لمستي، وسيكون قشرة لكاتبٍ حقيرٍ من دون أفكاري.

عدت للمنزل متخذًا قراري.

سأوقظه، وسأتركه من دوني لفترةٍ تليق بي، تأكدت من أنني قد غيرت نهاية قصته.. استلقيت فوق السرير ناطقًا اسمه، وأنا أغمض عيني وبداخلي يتراقص شيطانٌ صغير.

***

آخر رجلٍ على وجه الأرض

فتحت عيني على صوت هاتفي، مخي كان صافيًا كبحرٍ بعد اختفاء البشر.
وجدت رقمًا غريبًا لم أعرفه، احترت ما بين الرد والعودة للنوم إلا أن حدسي أخبرني بأنه يجب أن أرد، فهو اتصالٌ مهم.
الساعة كانت العاشرة صباحًا، تململت، ورددت أملًا في الانتهاء سريعًا لكي أعود للنوم.
سمعت صوتًا مبحوحًا في البداية، اعتدلت وركزت قليلًا لأنصت، بعد لحظات ظننت أنني مازلت أحلم لأن ماسمعته هو صوت (نوره) تقرأ عليَّ جزءًا من فتى الريش بعد تعديلها، وبالتحديد ما كتبته عنها لكي أفي بوعدٍ سابقٍ لها بأن أجعلها بطلةَ فتى الريش بعد التعديل بالطبع.
ظللت أردد غير واعٍ مين معايا؟
حتى ضحكت لتؤكد لي، وقالت:
ـ شكلك لسه معرفتنيش، هكلمك شوية كدا لما تصحى.
نهضت مذعورًا أصرخ بها:
ـ لا أنا صحيت وفايق، بس لسه مش مصدق.
ـ قلت أعملها لك مفاجأة بس سيبني بقا أكمل قراية.
جلست كطفلٍ صغير يستمع لحكايته المفضلة، لم أدرِ أبدًا من قبل أن رواية فتى الريش ستكون عظيمة مثل قراءتها ومخارج حروفها وصوتها المبحوح.
أنصت لها كأنني أراها أمامي، أشاهد ابتسامتها عند دهشتها من وصفي لها داخل الرواية، أشرب من ضحكتها حتى لا أشعر بالظمأ مجددًا، شعرت بأنني أتحرر، وأنه صار لدي القدرة على تحقيق حلمي، وجعلهِ واقعًا، همستُ قائلًا:

ـ وحشتيني.
سمعت نبضات قلبها تتردد عبر الأثير وتتعالى، ثم قالت:
ـ إنت كمان وحشتني، وسادت لحظة من الصمت أطارت كل ما كان في عقلي من صداعٍ وتعب.
انتهت من القراءة، وأنا على صمتي أرتجف، سألتها بكل لهفة:
ـ إنتِ فين؟ هلبس وأجيلك حالًا.
ـ أنا في طنطا ، مش هرجع قبل بليل لو دوست شوية في السواقة، لو رجعت مش تعبانة هنتقابل.
ـ هنتقابل، لازم نتقابل.
تأنقت كما لو أنني لم أملك من أتأنق له من قبل، بحثت عن بقايا عطرٍ قديم تحبه هي، حاولت بقدر الإمكان إخفاء أثر الليالي السابقة لأبدو متماسكًا أمامها.
وصلت لمكان اللقاء قبلها بثلاث ساعات، أحتسي فنجان قهوتي واحدًا تلو الآخر، ألمع حذائي، وأعدل من هندامي.. أنظر للساعة في كل دقيقة خمس مرات.. يشغلني عقلي بمليون سيناريو عن كيف سيكون اللقاء؟ هل سيكون مقلبًا.. أم سيكون أسطوريًا وستعانقني في منتصف المركز التجاري، وسيصفق لنا الجميع، فأنزل لها على ركبتي لأطلب منها أن تتزوجني؟
هل أخيرًا سيعطيني الكون بعض الراحة وسيجعل فتى الريش.. آخر رجلٍ على وجه الأرض.. المميز والوحيد لسيدة أقماره وليله الوحيد؟
كرهت توقعاتي.. زفرت لأنفض عن نفسي ما أتخيله لأستمتع وأفاجأ.. بدأت في مشاهدة التلفاز منبهرًا بحارس مرمى يسمونه القط من شدة مرونته. وبعد مرور ساعتين وخمسٌ وعشرين دقيقة وجالونٍ من القهوة والملايين من

الأعصاب المحترقة مع مخٍ ظن أن الأمر برمته خدعة وهي لن تأتي مطلقًا، ولم تأتِ.
حرارتي أصبحت لا تطاق، اختلطت حبات الدموع بالعرق، تسربت الساعات من بين يدي ، لم أدرِ كم طنٍ من القهوة والشاي شربت.. سألتني النادلة:
ـ أنت بخير؟ ثم أضافت مشككة:
ـ إنت ممعكش فلوس تدفع؟!
نظرت لها شذرًا، وأعطيتها المال، ثم أشرت للتلفاز وقلت:
ـ توتي.. اعتزل. كنت بحبه.
فنظرت مواسية دون أن تلتفت لترى من توتي.
تحول عقلي عندها لمذياع ضخم وصار يردد:
ـ لم تأتِ..
قلت:ـ ولن.

* **

تجولت الشوارع أتخيل لقاءنا الذي لم يحدث. هاتفي سيدوي برقمها، سأخرج حتى ألقاها، سأدخل سيارتها دون أن أنظر نحوها.. سأحاول تهدئة العاصفة المبرمة داخلي، سأنتظر حتى تنتهي الأضواء والضوضاء والعالم لأخذ خطوتي ولن أخذها قبلها.. خشيةً من أن تكون وهمًا.. سأسمعها تقول وهي تضحك:
ـ إيه مش هتتكلم..
فأنظر نحوها، فنتوقف في مكانٍ هادئ.. أتحسس وجهها؛ لأتأكد من كونها حقيقية ككل مرة، يأمرني عقلي بأن أقولها فأحاول منع لساني من تنفيذ الأمر، ولكن كان الأمر قد وصل بالفعل فأقولها بكل حرارة وأنا اتأمل وجهها المغطى بالنمش.. وحجابها غير الملفوف بعناية.. وشفتيها الورديتين.. وعينيها

العابثتين اللتين ترجواني بالاقتراب أكثر وبعض حبات العرق فوق الأنف العاجي المرسوم بعناية.

ـ إنتِ هنا..

سنتحدث دون رغبة في الكلام بل لنكون هنا بكل طريقة ممكنة ، سنختلس بعض القبلات وربما ستستلقي فوق كتفي لأقبل لها ندبات معصمها المفضلة لي.. سنترك السيارة ونمشي متشابكي الأيدي.. سأسبقها بعدة خطوات، وأسألها مبتسمًا:

ـ لو أنا آخر راجل على وجه الأرض دلوقتي هتعملي إيه؟

تفتح لي ذراعيها وتقبل نحوي قائلة:

ـ هحضنك.

وتعانقني كآخرِ رجلٍ على وجه الأرض ثم تقبلني، وتتشابك أيدينا مجددًا، ونظل نمشي للأبد.

أتخيلنا وأنظر لي ولها كأنني شخصٌ ثالث يرى من بعيد، أراني معها مناسبًا بشكلٍ مثالي، رغمًا عن جمالها الصارخ.. ثرائها الفاحش، قلة حظوظي لو التقينا في زمنٍ آخر فلن أصمد للحظة أمام المنافسين عليها، ولكنها في لحظة حمقاء من الكون جعلها تختارني أنا بعيني اليسرى المنغلقة قليلًا.. وشعري المشعث دون النظر لأي محاولات لتصفيفه.. وَنُحولي المبالغ به، وابتسامتي السخيفة المرسومة على الجانب الأيمن من وجهي فقط.. وخيالاتي الغريبة وقناعاتي في الحياة.

يا ليت الكون قد غفل عني وعنها في تلك اللحظة فلم نلتقِ قط.

أعاد لي تركيزي صوتٌ يخبرني بأنه ميعاد الإغلاق وابتسامة تخبرني بأنني أنتظر هنا منذ ست ساعاتٍ، وأنها لن تأتِ، فلملمت ما تبقى لدي من كرامةٍ وكبرياء وخرجت من المكان.

شعرت بأن السماء قد انطبقت فوق صدري وتمنيت لو سقط القمر فوْقي ليسحقني، طوال الوقت كنت أخبرها بأنني آخر رجلٍ على وجه الأرض في رواياتي كلها، ولكن ماذا لو تقابل آخر رجلٍ على وجه الأرض مع آخر فتاةٍ ولم يقعا في الحب أو تحديدًا لم تشعر بالحب تجاهه؟

أو ماذا يحدث لو لم تحب حواء آدم؟ هي كانت حوائي وفتاتي ولكن لم أكن أبدًا رجلها أو آدمها.

* **

الطريق للمنزل طويلٌ للغاية.

حاولت استدعاء (سحاب) ولكن فشلت.. شخصٌ آخر لن يأتي اليوم.

بدت لي رحلتي عبثية، لأنني لن أجد الراحة في نهايتها، فصارت خطوتي تزن طنًا فوق الأرض.. ولم أجد النجوم لتواسيني أو الأرض لتعانقني.

لا أعرف كيف وصلت إلى منزلي ولا كيف وجدت نفسي أسفل الغطاء بجفنٍ مرتجف أحدق في الظلام، كان الجو هادئًا من حولي وضوضاءً في عقلي.. ولم تهدأ إلا عندما وجدت نفسي أصرخ صامتًا وأنا أبكي.

صارت الأيام ثقيلة فوق قلبي.. جلست مريضًا في الفراش لأسبوع، قال الطبيب الذي أحضره أبي بأنني سليم جسديًا مئة في المئة، لذا من الممكن أن يكون المرض نفسيًا وقال له مازحًا:

ـ شكله عايز يتجوز ههه

عاندني لساني.. خذلني صوتي.. كل مرة أحاول التفوه فيها بكلمة لا يصدر عني سوى الصمت.. ويتهاوى جسدي كالبالون المثقوب كلما حاولت الوقوف أو المشي.

وهذه لم تكن سوى البداية.

كانت هناك مسابقةٍ ما يجب عليّ الاشتراك بها ممثلًا لدار نشري فلم أجد أنسب من (برج كيرا) لكي أشارك بها.. أرسلتها دون حماس ولكن سعد بها مالك الدار، أخبرني بأنها لا تشبهني أو تشبه قصصي عادةً في بدايتها إلا أن النهاية تشبهني وبالتأكيد ستفوز، لم أفهم ما يرمي إليه بنهايتها فمن المفترض أنها قصةٌ مختلفة.

فررت الورق وصولًا للنهاية فوجدت نهايتي قد اختفت واستبدلت بنهاية أخرى تنفجر فيها دماء كيرا بعد أن قتل بالياقوت ويبدأ رفاقه بجمع كل ما يمكنهم من الياقوت الأحمر.

ـ ديه مش النهاية اللي أنا كاتبها، إنت غيرت النهاية!!

صرخت به مستنكرًا.

قال بسخرية:

ـ وأنا أقدر أعدل وراك يا فنان.

فصرخت به أكثر

ـ متبعتهاش، أنا هبعتلك غيرها لكن أوعى تبعت ديه.

ـ وأنا مش هبعت إلا ديه.

شُحِنَ الجو في لحظة، وتوقعت شجارًا سيحدث.

أكمل قائلًا:

ـ إنت غايب بقالك سنة وشوية.. ومبتردش عليا إلا لما تكون عايزني.. قلتلك عايز فلوس زيادة قولي، عايز تحسين لعقدك قولي إنما تتجاهلني لا. القصة اتبعتت خلاص.. ومن هنا ورايح لو عايز تكمل معايا تكمل بشروطي وتكتب زي ما تكتب.. متخليش شياطينك يطلعوا عليا.. أنا زي ما كبرتك وعملتك ممكن في لحظة أمحيك وترجع تاني كاتب ملهوش وجود، أنا هقفل دلوقتي والمرة الجاية ياريت تكون عقلت.

تعمدت أن يسمع ضحكتي الساخرة قبل أن يغلق الهاتف.

الكُره يولد طاقة ما تشع باللون الأسود، شعرت بالإهانة، وتمنيت لو أبيع روحي مقابل أن أراه أمامي الآن لأمثّل بجثته.. الأحمق يظن أنه قد صنعني بعد أن كانت أقصى مبيعاته تتمثل في طبعة أو طبعتين.

أسلوبه أشعل تحديًا بداخلي، فتحت الفيس بوك، وبدأت في استخدام ألاعيبي، فاخترت إحدى الصور الشخصية العميقة نوعًا ما والتفاعل كما كان سابقًا أو ربما أكثر.. انتظرت قبل أن أكتب في منشورٍ خاص بأنني قررت بأن الرواية القادمة ستكون روايةٍ درامية، وأن الجزء الثاني سيؤجل لميعادٍ لاحق.

كانت التعليقات مخيبة للآمال، إذا استثنيت الروائيين الآكلين على كل الموائد لتملقهم بالطبع وليس لطول عمرهم، والفتيات المراهقات بتعليقاتهم الموحية نوعًا. بقية التعليقات كانت باطنها يحمل السخرية والسخط، هم لا يريدون مني أن أرتجل أو أن أكتب ما أود أن أكتبه ولن يتبعوني لنهاية الطريق، ربما كانت النهاية بالنسبة لهم هي نهاية أجزاء سماء الغزلان.

شعرت بالوحدة تضيق حبلًا حول رقبتي، لم أجد من ألجأ إليه ليساعدني في اختيار الطريق ما بين الدراما أو الخيال.

رغبتي الملحة في كتابةِ شيءٍ قيم تتعارض مع فكرة كتابة الخيال على الرغم من أن أدب الخيال عظيم ومن أصعب أنواع الكتابات إلا أنني لم أجد نفسي في الكتابة عن شخصٍ يملك كل ما لا أملك، بطلٌ خارق يستطيع قتل الشرير وإنقاذ العالم والحصول على الفتاة في نهاية اليوم أثناء تصفيق الجماهير.
لماذا يكون حظه أفضل من حظي وأنا خالقه؟ لماذا يفوز هو وأخسر أنا؟
المجد للرجل العادي الذي قد يجد يومًا ما ما يخلده في تاريخ الأشخاص العاديين مثله دون قصد كإنقاذ قطةٍ ما أو إطفاء حريق.. سيظل يردد الناس بعد أن يموت بحكايته دون ذكر اسمه، وسيظل في النهاية رجلًا عاديًّا.
لم يتفهم أي شخص وجهةُ نظري.
نهرتني أمي وإخواتي؛ لأنه بهذه الطريق سأخسر أموالًا وشهرة وعلاقاتٍ، وربما سأضيّع فرصتي في الحصول على جائزةٍ تدرّ خيرًا أكثر. لم أجد مخرجًا، ولم أملك القدرة على النقاش؛ لأنهم لن يفهموا ما أود التعبير عنه.
احترت ما بين القرارين، قرار عقلي الذي يميل له (سحاب) وأمي وأخوتي ومعجبو الفيس بوك ودائرة المعارف وعم حسن البقال وهو تكملة الطريق للنهاية واعتناق الخيال دينًا أنشره بين الناس لكي أصبح نبي الخيال الجديد، وأملك المال والنساء، وربما أصل لقمة العالم.. أو ضرب كل هذا بعرض الحائط واتباع قلبي والكتابة عن ما أحب، وغالبًا سيؤدي هذا القرار إلى خسارتي لكل ما أملك من أتباع ومعجبين وسأموت في النهاية وحيدًا دون أن يتذكرني أحدهم ولو تذكرني سيقول:
ـ كان غبيًا، اختار مجد القصة على شهرة الخيال، وسيبتسم، وينسى الأمر برمته.
عندما بدأتُ رحلة الكتابة قررت من اليوم الأول أن أكتب عن كل ما يريد قلبي، وتركت عقلي للأمور الأخرى، كتبت أول روايةٍ لي في العشرين من

عمري باسم نصل الخوف.. من شدة انبهار عقلي قبلها بالأبطال الخارقين، حاولت صناعة أحدهم بصبغةٍ مصرية واسمه كمال، ولم أصدق أنني صنعت بطلًا خارقًا يعاقب الأشرار بنصله الذي يجسد مخاوفهم.. كاد قلبي أن يثب من حلقي عندما أمسكت بالنسخة الأولى من الطبعة الأولى.

آمالي تخطت السماء في هذا اليوم.. في حفلةِ توقيعي المخطط لها في معرض الكتاب، قلت أنني سأتأنّق أفضل ما يكون، وسأضع عطرًا ثمينًا، طلبت من صديقتي يومها أن تجلس بجانبي أثناء الحفلة التي كانت رائعة في تصوري.

مازلت أتذكر هذا اليوم كلقطات كأنها من فيلم درامي كئيب.

لم أستطع النوم طوال الليل،

اكتشفت أن الحذاء كان ضيقًا للغاية.

تأخرت على ميعاد صديقتي.

وصلت لأَجد طابورًا عريضًا من البشر يقفون في الشمس بانتظار دخولهم، وانتظرت معهم.

دخلت متأخرًا عن موعد الحفل بثلاث ساعات، وكنت أبدو كأنني خرجت من حربٍ للتو.

تأخر المدعوون منهم كان أبي وأمي التي بدأت في التذمر؛ لأنها وقفت في الشمس طويلًا.

اختفت صديقتي في ظروف غامضة فيما بعد علمت أنها قد شعرت بالغيرة من فتاة مدعوّة.

وكل هذا لم يكن إلا مجرد البداية.

تفاجأت أن عدد النسخ الموجودة في حفلة توقيعي الأولى لم تتعد العشر نسخ لحدوث خطأٍ ما في مطبعة الورق فلم يتم توفير وتجهيز إلا تلك النسخ فقط.

وقفت في منتصف المكان أبدو كالموتى الأحياء، الجميع من حولي يتحدثون، وأنا لم أقدر على النطق، ثم تداركت نفسي، وأخبرت منظم الحفلة أنني أعتذر عن الحفل وأنه من المهين أن أظهر يومي الأول بهذا الشكل.

تصاعد الأمر من نقاشٍ هادئ لنقاشٍ حاد، أحاول إقناعه بقولي:

ـ إزاي هعمل حفلة ب10 نسخ بس.

ويحاول ألا يبدو مخطئًا ويقول:

ـ ابتدي حفلتك ده مازن باع 100 نسخة في حفلته.

حاولت أكثر، وقلت له:

ـ على الأقل هو جاله 100 نسخة.

فقال ناهيًا للنقاش:

ـ عدي اليوم يا كريم،

فجلست مهزومًا لا أدري ما الذي يحدث من حولي.

الطريف أنه بعد وصول بعض من أصدقائي وحصولهم على الرواية اكتشفوا أن كل النسخ بها عيبًا خطيرًا وهو أن الصفحات معكوسة، السبعة قبل الستة وهكذا.

اليوم كان هزليًا بكل المقاييس من بدايته حتى نهايته.

كوب الشاي مذاقه كالتراب، حاول من حولي مواساتي وأنا أبحث عن أي وجهٍ أعرفه ولم أجد.. وبعد انتهاء الحفل الدموي فرغت بطارية هاتفي دون أن يأخذ صورة واحدة كما كنت أتمنى، قابلت أصدقائي بالصدفة أثناء بحثهم عني. وضحكت معهم كذبًا.. حاولت ألا أقنع نفسي أنهم لا يسخرون من إنجازي، تحدثت معاهم بصوتٍ واثق، وكنت أكذب وقبل أن أودعهم تمزق حزام بنطالي

إلى نصفين، فلم أقدر على الاحتمال فهربت منهم لأبكي في منتصف الطريق مثل أدريان براودي ولا أذكر ماذا حدث لاحقًا.
لم أعد أنا بعد هذه التجربة.
صرت عدوانيًا وشرسًا، أدافع عن نفسي من المُحب لو شعرت -ولو بجزء بسيط من السخرية- ومن العدو الذي اعتقدت عندها أنهم كُثر.
ساءت حالتي حتى لم أجد أي شخص، وأصبحت وحيدًا أتحدث مع نفسي أكثر من أي وقتٍ مضى، أقسمت ألا يحدث هذا الموقف مجددًا، وجعلت من كراهيتي للعالم وقودًا للكتابة.. صار الأرق رفيقي وكف لساني عن الكلام حتى ظننت أنني سأتحول لدودةِ قز من قلته، وضحكت بشدة من هذا التصور، كتبت وكتبت وكتبت لمدة عام.. تعثرت وبكيت واشتكت عظام كفي وظهري من الألم وصولًا لنهاية الرواية التي كانت سببًا في ظهوري حينها.
قلت لنفسي بشكلٍ درامي مفتعل كعبقريٍ مجنون.
أخيرًا.. (فتى الريش)

***

يمكنني أن أسرد لأيام ولكن النهاية ثابتة.
في النهاية جاءني (سحاب)، وبدأت المعضلة الحقيقية بين الدراما والخيال.
(سحاب) ساحر، أفضل متلاعب بالكلمات قد تقابله في حياتك، مستغل ممتاز لأي فرصة، يعرف كيف يغير طريقته واحتياجاته وفقًا للظروف، وسيم كالشياطين، محترف في الجنس لا تنجو أي أنثى تأتي تحته، يعرف كيف يستغل شكلي البريء بنظارتي الضخمة وملامحي الأقرب لملامح الأطفال لكي تقع في شباكه.أي أنه نقيضي.. فيكفي أنه لم يتلعثم في الكلام قط عكسي تمامًا.
مشكلتي معه أنه يكرهني.. وأنه يظن أنني أكرهه.

الحقيقة أنني لم أكرهه أبدًا، بل أعجبت به منذ اليوم الأول الذي ظهر فيه، واتفقنا على كل شيء.

حسنًا.. هو لم يكن اتفاقًا بالمعنى التقليدي فنحن اختلفنا في كل الأمور تقريبًا فهو يحب الوصف بشدة، يميل لوصف المباني والأجساد والوجوه والشوارع والسيارات والملابس والقبح والألوان والروائح فقط! دون أن يقتحم تفاصيل عقل الراوي ومعرفة رؤيته الخاصة في الكون فتبدو كتابته صلبة لا توجد بها أحياء، بل جمادات متحركة تفعل ما تؤمر دون ذرة من التمرد أو الاختلاق.

محاولات إقناعي لم تكن كافية.. لم يفهم أبدًا أن السرد هو عملية أشمل وأعظم وأرقى يضم الوصف واللغة والحوار والحبكة في قالبٍ واحد، وأنه التطور الحقيقي للكاتب الموهوب.. فهل من المعقول أن أحب جمادًا يصف لي أشياءً أراها عادية وأعطيته مثالًا.

صف لي رجلًا أعمى يرى الألوان للمرةِ الأولى.

فوصف لي كيف رأى اللون الأحمر ووصفه بالعنيف والأزرق بالهادئ والأصفر بالمريب ولم يتطرق لوصف شعور الرجل نفسه فسخرت منه وأخبرته أن رؤيته لا تتعدى رؤية طفلٍ في المرحلة الابتدائية يلون رسوماته لأول مرة.

وكتبت أنا له في المقابل.

أخبره الطبيب وهو يزيح الغمامة من فوق عينيه أن العملية قد تنجح وقد تفشل وعلينا أن نؤمن بقضاء الله وقدره وأننا أخذنا بالأسباب والشفاء من عند الله، ارتجف الرجل للمرة الأولى في حياته بهذا الشكل، ففي السابق كان يعرف أنه في مكانٍ مفتوحٍ من حركة الهواء إلا أنه للمرة الأولى أيضًا يعرف أنه بالخارج من خلال عينيه.

فقد قدرته على الرد والحوار، وبدأت عيناه في تجرع الألوان من حوله، فمعطف الطبيب ناصع البياض وملامحه متعبة وتحمل تجاعيدًا تشبه الأخاديد، السماء صافية للغاية فبدأ في جمعهم في جعبته لكي يتأملهم لحد الشبع، تفهم الطبيب موقفه ورحل عنه دامعًا من نجاح العملية.

لم يدرِ أن اللون الأخضر بهذا الجمال، الجميع من حوله كانوا يتحدثون عن كون المرج أخضر بشكل مريح للأعين في هذه المؤسسة.

كلمة أخضر لم تكن في قاموسه حتى ولم يكن يملك قاموسًا به كلمات ألوان، هو لم يرَ في حياته مطلقًا منذ ولادته معنى الألوان، لذلك كانت بلا معنى حتى رآه، فأصبحت كلمة أخضر لها معنى جميل ارتبط في ذهنه ببعض الأطعمة فصار للون الأخضر طعمٌ جميل في حلقه، ولم يستسغ طعم الأصفر ولا الرمادي.

جلس لساعاتٍ يتأمل الألوان ويربطها في عقله بالأطعمة، ثم بدأ في تخمين أسامي الألوان عن طريق حدسه، وكان الموضوع ممتعًا للغاية، ليس لمجرد رؤيته للألوان بل لشعوره بمشاعر جديدة كالبهجة والفرح.

قالوا أنه توفى في صباح اليوم الثاني بابتسامة راضية على وجهه، قال الطبيب: أنه لم يمُتْ بل أن روحه تحلق الآن بين ألوان النجوم، فهذه لم تكن ابتسامة رجلٍ سعيد بل كانت ابتسامة رجلٍ وجد نفسه.

تخيل الطبيب وهو يغطي وجهه أنه ذهب إلى النوم راضيًا لا يريد أي شيء آخر من الكون، وأنه حلم بأن روحه قد صعدت للفضاء، وقد رأى الكواكب لأولِ مرة، ولأنه قد صبر لأعوامٍ وأعوامٍ على ابتلائه فقد أعطاه الله فرصةً لكي يلون الكواكب كما يحلو له مقابلٍ أن يترك جسده الثقيل على الأرض، فوافق وهو يشعر لأول مرةٍ في حياته وآخر مرة أنه قد وجد نفسه أخيرًا.

قرأ ما كتبت ساخرًا أن ما كتبته ليس له علاقةٌ بالألوان من قريبٍ أو بعيد فأخبرته بأن هذه هي الفكرة، أنت تتحدث عن البرتقالة بلونها وطعمها وشكلها، وأنا أتحدث عن طعمها فقط على لسان طفلٍ يتيم لم يأكل منذ أيام.
غاب عني لفترة فظننت أنه قد ملّ حتى عاد من جديد يبدو عليه الحماس والسعادة.
لم يعطني فرصة للحديث، وبدأ في شرح فكرته الجديدة التي ستحتاج منا العمل بكل طاقتنا الأيام الآتية ومن هنا تمت كتابة (سماء الغزلان). تخطيت شعوري الانهزامي الناتج عن فترة ما بعد فتى الريش والناتج كان خياليًا سواء على مستوى الكتابة أو على الجهد المبذول مني أو من سحاب.
لهذا لم أكرهه قط بل اعتبرته صديقي الوحيد فبشكلٍ ما هو يكملني، على الرغم من شعوري بالغضب منه حاليًا لاختفائه عندما احتجت إليه بشدة في مسألةٍ شبه محسومة وقراره أكاد أراه قبل أن يقوله إلا أننا في هذا الأمر معًا ويجب علي أن آخذ برأيه.

***

فشلت كل محاولات استدعائي له.. لم يأتِ عن الطريق النوم أو النساء أو الكتابة.
ربما كان اعتقادي صحيحًا عندما قلت أنه قد ملَّني وهذا يعني أنه الوداع للجزء الثاني من (سماء الغزلان) وللشهرة وللأموال، وهذا ليس سيئًا بالنسبة لي على الإطلاق إلا أنه سيكون سيئًا بما يكفي لتحلّ عليّ لعنات العائلة المتفاخرة دائمًا بكون ابنها البار (العاق سابقًا عندما كان مغمورًا) مشهورًا يحضر حفلات التلفاز، ويكون ضيفَ شرفٍ على أية ندوة، ويجلس بجانب عمالقة الروائيين لمجرد أنه مشهور.

هذا لا يقلل من قدرتي على النقد والمحاورة فيما يخص الروايات إلا أنني أعلم علم اليقين بأنه قد تمت دعوتي لشهرتي بين الجمهور الغفير من الفتيات والفتيان الذين سيأتون الحفل ليس حبًا في الروائي الشاب الآخر الذي يملك خمسة متابعين ولم يبع إلا طبعةً وحيدة.. ولا حبًا في الروائيين الرائعين الجالسين بجانبي على نفس الطاولة وبالمناسبة بعض الجالسين منهم لم يعرني اهتمامًا عندما طلبت منه نقدًا لفتى الريش، والآخر تجاهلني كما لو أنني كنت شفافًا والأخير طعن الرواية نقدًا دون أن يقول لفظًا واحدًا إيجابيًا حتى كدت أن أعتزل وأستقيل، ولكن هذا كان في الماضي.

تذكرت أنني تعمدت قول الآراء الخاطئة من حين لآخر أثناء الندوة، وكنت أحصل على تأييدهم بكل سهولة وكأنهم يشجعونني، فأعتذر وأتفنن في وصف رأيي الحقيقي الشخصي بشكل أتعمد فيه إحراجهم وأبدي اهتمامي الحقيقي للكاتب المُحاوَر، وأناقشه بجدية وشغف في نقاط مهمة ربما قد غفل عنها أو إشادة بأسلوب سرده في فصلٍ ما بشكل يشجعه على الاستمرار وتكملة مشواره، وأصر بعد انتهاء المناقشة أن أقف في الطابور القصير أمامه لكي أحصل على توقيعه وأطلب منه بكل أدب أن ألتقط صورة معه بشكلٍ تلقائي حتى لا يظن أنني أسخر منه أو أقلل من شأنه، وفي النهاية أنشر صورتنا مع تعليقٍ يشير إلى أنني أنا من طلبت منه الصورة وليس العكس لكي أرفع من معنوياته وهكذا.

ربما تذكري كل هذا جعلني أشعر بالحنين لتلك الأيام للمناقشات الحادة والنقد الروائي ومعرفة الرؤية الخاصة للكاتب، وهل ستفيد العملية السردية وعملية الفن أم لا؟ وفكرة رجوع أو استمرار وضعي الراهن مع احتمالية تكرار

وجودي كضيف في الندوات والمناقشات يكمن في يدي، ولكن هنا تكمن الإشكالية.
شعوري حاليًا كمن وصل لقمة العالم، ولكن ليس صعودًا بل تم إنزاله هناك بجهدٍ بسيطٍ مني لا يليق بعظمة الحدث.
فهل أعيش ما تبقى لي من عمر أختال بقناعِ بطلٍ ليس قناعي ولكنه يليق بي أم أحطم القناع وأنضم للعامة الذي كل ما يحاولون فعله هو إنقاذ يومهم؟.
وأعتقد أنني أميل للاختيار الثاني.
أن أعود عاديًا لا يعرفني العديدون وأموت وحيدًا منسيًا بين ملايين الكتب، ولكن قد يأتي بعض الحمقى المحبين للدراما في وقتٍ ما؛ ليبدأوا في الحديث عن الكاتب المغمور القديم صاحب رواية (دون النظر عن اسمها) ويقولون أنها من أعظم الروايات التي كُتِبت وأجد قراءً حقيقيين بعد أن أموت وعندها سأبتسم لهم من علٍ، وسأشعر بأنني وجدت نفسي، أو أستمر في استغلال أفكار (سحاب) وأقوم بدور القلم فقط وأغوص في بحر الشهرة والثراء الذي سيقودني للحصول على جائزتي الأدبية الأولى التي أتمناها لأتفاخر بها وأخلد اسمي عنوةً بين العظماء والعباقرة في مجال الرواية.. لكن بعد مرور اليوم وبعد أن أغلق باب غرفتي وأجلس فوق سريري لأتأمل الجائزة سأشعر بأنني لا أستحقها وأنها تعود لسحاب.. وأنني مجرد وسيلة وصل بها لنشر أفكاره وطريقته في الكتابة المختلفة عن أفكاري ومعتقداتي وسأظل لبقية عمري أحمل السر.. وحدي فقط سأجلس فوق عرشِ مجدٍ وهمي.
حسنًا.. تبًا لأي مجدٍ لست أنا صانعه الوحيد.
سأكتب ما يمليه عليَّ قلبي.

***

الارتجال ثاني أفضل شيء مخلوق بعد السرد.
الطريق أمامي واضح.. ممهد.. مرسوم...
شخصٌ غيري سيرتاح ويترك نفسه للقلم وأفكار (سحاب) ويستمتع بالمجد للأبد دون النظر لزيفه أو حقيقته.. وسحاب نفسه يظن أنني لن أقدر على الخروج أو التمرد على طريقه فاطمئن واختفى تاركني أتخبط وحدي.
ولكن مثلي لا يفعل إلا ما يريد دون النظر للعواقب، فبدأت في الارتجال.
في البداية كتبت منشوراً بسيطاً قلت فيه أنه قد تم البدء في كتابة الجزء الثاني من (سماء الغزلان) مع تعبيرٍ باسم، ثم ذكرت أنه لن يكون خيالًا تقليديًا بل سيكون شيئًا مختلفًا.
ونشرت المنشور ولم أهتم بردود الفعل ثم ذهبت للبحث عن فكرةِ الرواية الجديدة.

***

سحاب يعود

مرحبًا بي من جديد.. الرائع قد عاد.

وددت لو طالت مدة عطلتي أكثر من ذلك، لأستمتع أكثر بمعاناتهِ بعد فعلتي إلا أن الأمر قد تخطى المعاناة، واتجه نحو إفساد ما فعلناه في السنين السابقة، الحقيقة أنني أعترف بأنني لم أتوقع أن يذهب عقله لتلك الجهة بعد خدعتي.. ظننت أن بعدم قدوم (نوره) لموعدهم المتفق عليه قد يجعله يود أن ينتقم، ويلجأ لي من أجل كتابة النص الخيالي الأعظم في التاريخ؛ ليصير أفضل كاتبٍ موجود حاليًا.. ولدي الأفكار التي تساعده للوصول لذلك، ثم تراه (نوره) بعظمته وشهرته؛ فتخر راكعةً وعائدةً إليه؛ فينتقم منها كما يريد.

لكن الأمور لم تسر مثلما خططت، فبدلًا من تخليه عن الدراما تشبث بها أكثر، ولا أدري ما هي خطوته القادمة، وهذا يعقد الحياة بيني وبينه.

يمكنني التخلي عنه بالطبع والرحيل للأبد، وجعله يختار قراراته بعشوائيته الحمقاء السابقة، ولكن أين تكمن المتعة إذًا ما لم يكن هناك بعض الصراع؟

قضيت معظم الوقت في عزلتي أحاول إيجاد ما يصعب عليه الحياة من جديد، ويقلّبه على نفسه.. بعيدًا عن كل محاولاته لإثبات عكس ما تبدو عليه حقيقته، فهو متصالحٌ مع نفسهِ بطريقة ساذجة.. يحب شخصهِ بشكلٍ ما غير صريح، بغض النظر عن أنه أضاع سنة كاملة من عمره يقنع حاله بأنه هنا من أجل أن يتصالح مع ذاته ويجد نفسه إلا أن هذه خدعة يستتر وراءها متعة خفية في تعذيب الذات.. الأحمق يظن نفسه بطلًا إغريقيًا في روايةٍ ما.. ولا يجوز أن يُخلق بطلٌ من دون معاناة، فاستمتع بجلد ذاته والبحث عن العذاب والمعذبين؛

ليلتصق بهم ويحاول أن يبدو أكثر منهم حزنًا وتضحية من أجل الحصول على الصورة المرسومة في خياله للبطل المثالي.
لشهورٍ راقبته يداعب الفراغ، ويكتب ألقابًا على حوائط الأبراج على الرغم من إدراكه لسخافة الأمر، إلا أن البطل لا يكون بطلًا إلا بلقبٍ ما حتى لو أعطى اللقب لنفسه أو لقبه أحدهم أياه.
الشيء الوحيد الذي كان مخلصًا له بالفعل هو إخلاصه ل(نوره)، لم يتصنع الحزن أبدًا ولو لمرة أثناء فترة غيابها.. لم يحكِ عنها ليتباهى بوجعهِ أو بانتمائه لها، مما جعلني أغفر له ولو قليلًا..ولكن لم يقلل من كرهي له.
أعترف أن خدعتي الأخيرة كانت قاسية لعلمي التام ويقيني بأنه لم يحب ولن يحب فتاة مثلها، هو أيضًا له سقطات.. حاول مع عدةِ فتياتٍ، ونجح مع بعضهن، ولكن في كل مرة يكون فيها مع إحداهن يتذكرها، ويتذكر كيف تعانقا في شوارع مدينتها بعد منتصف الليل وكلامها اللطيف وحكايتها، جسده عمل كالآلة وعقله وقلبه هناك بين ذراعيها.. مثلي تمامًا.
لذا الخدعة القادمة ستكون أخف، وليس لها علاقة بها.. ربما كنت شيطانًا، ولكن لن أؤذيه فيما يحب، فيكفيه أنها لم تعد حتى الآن.
رق قلبي للحظة، وقررت أن أعطيه هدنة، لأدعه يرتاح تجهيزًا للقادم، أراهن أنه مشغولٌ الآن بالبحث عن فكرة روايته الدرامية الأولى.. لو كنت أعرف أنه بهذا العند عند استلامه؛ لكنت قد اخترت غيره، ولو كنت قد وقعت في نفس الإشكالية مع كاتبٍ غيره كنت سأستطيع غزو أرض روايته دون أن يدري حتى لو كانت الرواية درامية عادية عن طريق إقناعه بكتابة مشاهد جنسية ليس لها علاقة بالعمل تمامًا، فالمشاهد الجنسية تؤدي لنفس الطريق الذي يؤدي إليه

الخيال الرخيص وهو الهروب من الواقع.. وهذه مهمتي التي خلقت من أجلها.
الهروب من الواقع.
كريم عرفتهُ محبًا مخلصًا للخيال.. ينتمي إليه أكثر مما ينتمي لنفسه، في خياله عوالم لا مثيل أو حصر لها، أحلامه كانت نهرًا للأفكار الغريبة الممتعة.
في خياله فقط وجد نفسه.. صار محاربًا لا يشق له الغبار لم يُهزم ولو لمرة.. وصانعًا للألوان حمل على عاتقه حماية عالمه والأميرة.. وأميرًا غير متوَّج لعدم اهتمامه بأمور المملكة، فكل ما يريده هو العيش بجانب البحر.
وكتب.. كتب عن كل تلك الأفكار بشكلٍ وضعه فوق الخريطة أمامنا، فقرروا إرسالي له بعدما رأوا فيه ما يستحق.
في حياة كل شخص ما يغير وجهته إلى الأبد.
لا أذكر حقيقةً ما حدث له ليتغير حاله هكذا، رؤسائي لا يخطئون أبدًا.. فقد وجدوا فيه جنديًا مخلصًا للخيال فيما سبق بعد ما قرأوا قصصه وأفكاره ورأوا أحلامه التي يراها نائمًا أو مستيقظًا، أفكاره كانت شيطانية بحق تليق بأن يكون رائدًا للخيال دون النظر لأُسلوب كتابته الذي اعترضت عليه من اليوم الأول، ولكن على الرغم من كل ذلك عندما تم تعييني رسميًا له كان قد تغير حاله بالفعل، هناك فترةٌ ما في المنتصف قد أبدلت حاله.. جعلته يبتعد عن الخيال بقدر ابتعاد (نوره) عنه، شككت في أمره، وأعطيته شهرًا أو ربما اثنين حتى يعود لنا من جديد، ولكن انتهى الأمر بعناده الشديد معي فيما يكتب، فقلت في سري لحظتها.
اللعنة.. لدينا جنديٌّ ساقط.

بشكلٍ ما كنت مسئولًا عن مزاجه السوداوي بعد أن لازمته، وقد صمد أمامي لمدةٍ طويلة، ولكن وعيه لم يحتمل فكرة وجود كيان آخر بداخله.. دون الحاجة لذكر بالطبع أنه كيانٌ آخر يكرهه معظم الوقت.

لم أكفَ عن بث السموم داخل عقله حتى شاهدت تصرفاته تتغير، وبالإضافة إلى وجود شيطان مغرور داخل عقله قد أطاح بالكثير من اتزانه النفسي المتذبذب بالفعل، لقنته آياتي الشيطانية، قرأت عليه ما أريد أن يراه في نفسه. قلت له عندما حاد عن الطريق المرسوم والمقدر سلفًا له:

ـ أنت فاشل.. مجنون.. مريض نفسي، محدش بيحبك.. محدش مهتم بوجودك، ومفيش حد هيبصلك؛ لأنك أقل من أن حد يبصلك.

تأثير كلماتي المُلقنة له بصوته قاده للجنون، من قال أن العُقد النفسية تأتي من الصِغر. أنا معه الآن منذ ثلاث سنوات وستة أشهر وخمسة وأربعين يومًا وعشر ساعات أعطيته فيهم نصًا خارقًا للطبيعة، ووضعته على بداية الطريق للشهرة والمجد مع العلم أن تعريفي للشهرة والمجد يختلفان عن تعريفه.. جعلته يحصل على النساء والمال والشكل الاجتماعي المناسب، وجعلت صوته مسموعًا بعد أن كان يشعر بالحرج بعد قول رأيه، فيصمت بعدها لظنه بأنه بهذا يحرج نفسه أكثر، وعندما ظننت أنه قد يتمرد على النعمة الغارق بها بسببي أعطيته عقدةَ اضطهاد والدونية والشك في الآخرين وكره نفسه، جعلته وحيدًا يظن أن الجميع يكرهه ليظن نفسه رسولًا مُحَارَبًا ليعود لنشر الخيال دينًا بين الناس، ولكن عِندهِ قلب فوهة سلاحي نحوي، وصرت الآن مهددًا.

نعم..ربما تحين نهايتي لو أصدر روايتَه الدراميةَ الأُولى.

لم يحدث أبدًا أن فشل جنديٌّ من الخيال مع الكاتب الخاص به، سأدخل التاريخ كأول شيطانٍ فشل في إقناع ضحيته بشيءٍ ما، سيعدمونني بالطريقة الأكثر رعبًا

ودموية في التاريخ. سيحرقونني أثناء تعليق جسدي فوق الخازوق بعد تحويلي من شيطانٍ إلى بشري، ولن يؤلمني سوى تَحوُّلي. كان هدفي منذ ولادتي أن يسجل اسمي في التاريخ، ويخلد بعد تحولي للرماد، ولكن ليس بهذه الطريقة.. ليس بهذه الطريقة أبدًا.

عليَّ أن أفكر سريعًا لإيجاد حلٍ ما.

***

أفتقد شوارع وسط البلد، أفتقد الطريق، مشاعري تبدو بشرية أكثر من اللازم اليوم، ربما لأنني كنت غائبًا منذ فترةٍ عن النور والحياة أو ربما لأنني أحب المكان لا أكثر.

لم أحب أشياءً كثيرة.. كنت دائم السخط والكره سواء كان قبل فترةِ كريم أم بعده، ولكن يحسب له أنه جعلني أرى وسط البلد بعيونه، وأحس ما يحس به عندما يكون هناك.

المكان هنا واسع للغاية.. مريح.. يبدو كأنه تم اقتطاعه من روايةٍ كلاسيكيةٍ ما. تشعر بأن المباني يمكنها أن ينمو لها ذراعان؛ لتعانقك، والطرق تحتوي قدميك؛ فتكون خطوتك هادئة ثابتة، وكأنه ليس لديك شيءٌ آخر؛ لتفعله، مكان يستطيع احتواء كافة أجناس الكون، وقد لا يبدو غريبًا أبدًا أو شاذًا أن تجد شخصين متعانقين.. دون النظر لنوع الشخصين بالطبع، وأيضًا لا يحب المكان هنا إلا للذين لا يملكون مكانًا آخر يذهبون إليه والمعذبين في الأرض والمنبوذين والأحباء وطالبين الونس وبعض الصحبة الغريبة.

يمكن أن تجلس فوق أحد الأرصفة، لتشدو أغنية سخيفة لفريقٍ مجهولٍ بصوتٍ أجشٍ، وستجد من يستمع لك، وربما يشجعك لأن تكمل. سمعت حكاياتٍ مهولةٍ عن أن وسط البلد سابقًا كان ملاذًا للمدعين والمراهقين وللباحثين عن

وسيلة ل"شقط" أي فتاة، واستمرت موضة الذهاب لوسط البلد كأنهم ذاهبون لبيت المقدس قبل أن تنتهي هذه الموضة، واختفى الجميع ولم يتبقَ إلا المخلصون مثلي.
الساعات بدت كالتهام حبات الفشار أمام فيلمٍ ممتعٍ، لم أدرِ أين أنا إلا عندما شعرت بمن يركض خلفي مناديًا باسمي. نظرت مستفهمًا لأجده أحد أصدقائي السابقين، وأحد أكثر الروائيين شهرةً الآن.
علام نور الدين.
بعد التحيات والأسئلة التقليدية قال:
ـ عرفت.. كنت لسه قاعد دلوقتي بوقع عقد كتابي الجديد مع دار مفاجأة، وأنت وصلت لفين دلوقتي؟
شعرت بأنه يلقيها في وجهي ساخرًا، فرددت:
ـ أنا زي مانا، نجم أي دار بروح فيها.. بس موقف الدنيا شوية اليومين دول. هي بالمناسبة دار إيه اللي وقعت مع الروائي الجيمر العبقري!
وأكدت على كلمة (جيمر)، فأكفهر وجهه، وأجاب:
ـ دار إنت كنت عايز تنشر معاها من زمان بس محصلكش نصيب، فقلت منهيًا للحوار:
ـ المعرض مش بعيد، هنتقابل وهجيلك الحفلة، وهكون مذاكر كويس فخلي بالك بقا.
فأشاح بيده، وانصرف كلٌ منا في طريقه.
شعرت ب(كريم) يرتجف، فتأثير (علام) عليه كان سيئًا دائمًا.
دعني أحكي القصة بشكلٍ أوضح.

في فناء مدرسةٍ ما بين التراب والقمامة التي حاول عمال النظافة إخفائها بقدر الأمكان، جلس (كريم) وحيدًا يفكر في لماذا يشعر بالوحدة. هذه القصة حدثت منذ خمسةٍ وعشرين عامًا، فبالكاد تبدو ملونة، ولكن أنا أستطيع استعادة الذكريات بسهولة.

جلس (كريم) لا يتحدث، ولا يتحرك تقريبًا بانتظار والديه، كان طفلًا مثاليًا في نظر الجميع إلا زملائه الذين تجاهلوه تمامًا لكونهِ طفلًا خجولًا. وأثناء انشغاله ببعض الفتية وهم يلعبون الكرة رأى طفلًا آخر يجلس بعيدًا عنه بقليل، يحاول إعادة تلقيم قلمه الجاف، وكأنه مسدس.

استمتع (كريم) بشدة بما يفعله هذا الطفل، وارتسمت فوق وجهه ابتسامة حمقاء لازال يبتسمها حتى الآن، رآه الطفل، ولاحظ ابتسامته، فاقترب منه؛ ليعطيه قلمًا آخر، وليخبره بلهجةٍ آمرةٍ بأن يجهز؛ لأن الفضائيين الأشرار سيهاجمون الفناء في أي وقت، هنا رأى (كريم) القلم يتحول لمسدس ليزر وملابسه الرمادية الكئيبة، قد تحولت لبدلة حربية كاملة وثلاثة أطباق طائرة أرجوانية اللون يهبطون بهدوء، وعظمة من سماء المدرسة، ويبدأون في شحن أسلحتهم؛ لمهاجمته هو وصديقه الجديد.

رفع (كريم) فوهة سلاحه الليزر الخارق نحو أول الفضائيين لحماية صديقه الجديد وحماية الفناء بحياته، فجأة صار الفناء مغطى بجثث الفضائيين بلونهم البنفسجي، وطلقات الليزر تتطاير في كل مكان من حوله هو وصديقه، وبعد عشر دقائق من الوقت الأرضي وخمس ساعات من وقت الفضائيين استطاع (كريم) وصديقه الجديد أن يمنعا غزو الفضائيين لفناء المدرسة، واحتفلا بصوتٍ أحمقٍ تحت أنظار كل من كان في المدرسة في ذلك الوقت.

وبعد أن انتهيا من احتفالهم جاء والد (كريم)، وحان وقت الرحيل، فنادى عليه بصوتهِ الطفولي الناعم:

ـ إنت اسمك إيه؟

فأجابه بدرامية تليق بحربهم المختلقة:

ـ علام.. علام نور الدين

وهنا بدأت صداقة غريبة بين عدويين لدودين.

دامت صداقتهم الحقيقية ليومين قبل أن يصعد إلى السطح بداية المشاكل في شخصيةِ علام، مشاكل استمرت حتى يومنا هذا. فعلام كان شخصًا مائعًا.. ثقيل الظل، يفعل أي شيء مقابل أن يحصل على انتباه من هم حوله، مصابٌ بجنون العظمة منذ كان في الثانية من عمره، ينال أي شيء يفكر في أن يناله، عندما ولدته أمه أصر أن يخرج من رحمها على موسيقى مايكل جاكسون وإلا لن يجعلهم يحصلون على شرف إحضاره للحياة، لم يبكِ مثل الرضع العاديين بل غنى لبينك فلويد، في ليلة من إحدى الليالي قرأ إحدى القصائد على صوت والده وهو يدق مسمارًا في الحائط فاخترع الراب، لم يجرِ وراء عربيات رش المبيدات كباقي الأطفال بل كان يجلس فوق ماسورة الرش نفسها؛ ليوزع الدخان بالتساوي على الحشرات والأطفال الراكضين، عندما اخترعت مايكروسوفت برنامج المحادثة الأول وجدوا ثلاث رسائل مرسلة من علام وقد مر عليها ساعةٌ كاملةٌ.

نَصب نفسه إلهًا للألعاب الإلكترونية، وعندما كتب روايته الأولى كانت تشبه بالنص أحد الألعاب المشهورة، سأله (كريم) عن ذلك، قال له: إن التشابه غير متعمد على الرغم من التطابق التام بين الشخصيات الأساسية والفرعية والحبكة فقط.

تعرف (كريم) على الكتابة بسبب (علام)، ومع أول روايةٍ قرأها تأكد أنه سيصبح كاتبًا يومًا ما، صحيح أنه لم يكتب حرفًا، وأن هذه الرواية الأولى التي يقرأها، لكن قرر أنه سيكون روائيًا.

يمكن أن أكون الكاره الأول لكريم إلا أنني أعطيه حقه، فالفتى موهوب.. يستطيع سرد ووصف أي مشهد بدقة مثالية دون بذل مجهود، يعطيه عقله الأخطاء والخلل الموجود في أي رواية دون أن يبحث، وكانت هذه المشكلة التي جعلت العداء يبدأ بين كريم وعلام.

علام بحث عن ما يجعله مشهورًا دون النظر لنوعية الطريق الذي سيسلكه.. بدأ كمغني ثم مغني للراب، ثم اعتزل؛ لأنه لم ينجح، وعندما وجد (كريم) يمشي بخطى ثابتة نحو ما يريد تحقيقه في البداية سخر منه في السر بين الأصدقاء المشتركين بينهما.. ثم تطور الأمر بأن بدأ في إحباطه، وجعله يصرف النظر عن نشر روايته الأولى قبل أن يبدأ في استخدام طريقته التي جعلته يصل للشهرة وهي النفاق، لهذا وصل علام قبل كريم.

تابعت قصته آملًا في معرفة من شيطان كتابته الرائع، فلم أتوصل إلى هويته، فقلت إما أنه غامض، ويستطيع إحكام الغلق حول شخصيته وملهمه جيدًا.. وإما أن هذا الفتى موهوب بشكلٍ لا يصدق، حتى قرأت أول رواية له فعلمت بأنه ليس موهوبًا، وبالتأكيد أنه ليس غامضًا مطلقًا بل أنه أحمقٌ ينزل بنطاله لأول تاء مربوطة ترسل له قبلة، وعلمت أيضًا أنه سارق محترف يسرق أفكار الألعاب القديمة والحديثة.. المشهورة وغير المشهورة، ويحورها بشكلٍ يبدو أنه أسلوبٌ خاصٌ.. اللعين لم يمتلك أسلوبًا للكتابة بل أسلوبًا مقتبسًا من كل كاتب قرأ له، وأعجب به.

انحزْتُ لصف كريم في حربه ضد علام، من تصريحات هجومية عن مدى ضحل المعرفة وانعدام الثقافة. كريم اتهمه علنًا بأنه سارق وحقير وآكل على كل الموائد كنايةً عن شدة نفاقه. وعلام اتهمه سرًا بأنه قليل الخيال وساذج ومدعٍ وداعر لدخوله عالم الكتابة لكي يعرف الكثير من الفتيات (وهذا لم يكن خطأً بنسبة مئة بالمئة)، وفي العلن خرج قائلًا بأنه وكريم أصدقاء منذ الصغر، ولن يرد أبدًا عليه؛ لأنه بمثابة أخيه الصغير.

فربح المعركة بسهولة، وانضم الجمهور لصف علام.

أخذ الحق حرفة، لم يكن كريم أبدًا محترف، ولكنه كان يخوض حربه حتى النهاية، ولا يتراجع من أجل مالٍ أو جاه.

بعد التدقيق في شخصية علام غير المتزنة وجدت أنه لم ينظر لكريم أبدًا كمنافسٍ له، في الحقيقة هو لم يشعر بأنه ينافس أي شخصٍ مطلقًا؛ لأنه أعلى وأعظم من أن يوضع في مقارنة مع العامة والعاديين ككريم من وجهة نظره، وهو كان محقًا بعض الشيء في هذا الأمر.

فكريم كان يتميز بأنه عادي بعيدًا عن شكلهِ وتكوينه الجسدي العادي أيضًا.

(كريم) كان عاديًا.. يؤمن بنفسه كأي حالم يريد أن يصل للمجد، في الجنس طور من مهاراته فصار أعلى من العادي بقليل، ولكن رغباته كانت نفسها وهي الاستلقاء بين ذراعي من يحب بعد أن ينتهيا من نوبة حُب.

ملابسه كانت عادية، بنطالًا عاديًّا، وقميصًا مخطط اللون يكرهه ولكن يرتديه، لم يرتدِ 1689536 سوار في يده؛ ليبدو رائعًا فقط، ارتدى سوارً أسودًا يتفائل به، لم يصفف شعره مثل لاعبي الكرة.. ليس لأنه لا يود بل لسوء حالة شعره المجعد والمشعث الذي يجعله يبدو لطيفًا بشكلٍ عاديٍّ وليس مبالغًا فيه.

نظارته.. عادية

طريقة حديثه.. أقل من العادي؛ لأن لسانه به عقدةٌ يصعب فكها، فهو دائم التلعثم، يخجل من أن يتحدث بسبب نبرة صوته العالية التي يكرهها.

عيناه.. ليس بها شيءٌ مميزٌ أو مثيرٌ. سوداء اللون إحداهما جفنها منغلق أكثر قليلًا من الأخرى.

كريم كان عاديًا بشكلٍ مميزٍ أمام العالم، لكنه كان يملك أشياءً مميزة غير مهمة لهم.

قلبه كان عاطفيًا بشكلٍ استثنائي.

بكى لبكاءِ بائعٍ متجولٍ بعدما مات حماره وتأثر لأيام، يحاول مساعدة أي كائن حي يراه في مأزق حتى لو لم يكن بمقدوره المساعدة.. حمل رسالة نصرة المستضعفين في الأرض؛ لأنه كان منهم. ظل لسنوات يود أن يوضع في موقف لإثبات بطولته، أخبرته ناهرًا إياه بأن قلبه لن يستطيع احتمال فكرة إنقاذ الجميع مما سيؤدي إما للموت أو للانتحار، فلم يعلق.

عاطفته ودراميّته جعلته بطلًا للعاديين من أمثاله، يساعد من لا يملكون مالًا حتى لو اضطر لإخراج آخر مليم في جيبه، والوصول لبيته مشيًا على الأقدام، يربت فوق كتف الأطفال الفقراء.. يبتسم ويمازح كبار السن المنسيين في أي مكان، وينصت لقصصهم بأذن المهتم قبل أذن الروائي، سمع مليون قصة من مئات كبار السن في الشارع ومقاعد انتظار الحافلات ودور الرعاية والجوامع والمقاهي ومواقع التواصل الاجتماعي، قصص الكُهّل والعواجيز تكون أجمل من الحدث نفسه.. فمع تقدم السن تصير الذكريات أجمل وأمتع على الرغم من أنها حينذاك لم تكن بنفس الإثارة.. مع مرور الأعوام صعودًا ونزولًا بين الوصول لقمة الحياة حتى لو كانت القمة هي الأموال أو النساء أو وظيفةٌ مرموقةٌ حتى العودة للقاع من جديد، والقاع بالنسبة للكثير منهم هو النسيان

أو الخوف من الاندثار من ذاكرة أحبائهم، لذلك مع مرور الوقت يتشبثون أكثر فأكثر بكل انتصار حتى لو بسيط أو ضئيل مقارنةً بذاكرة الكون كإنقاذ كلب أو إطفاء حريقٍ كاد أن يشتعل.

كان يجلس بالساعات يستمع إلى قصصهم بلمعةِ أعينهم والرذاذ المتطاير أثناء حديثهم بحماسٍ عن إنجازٍ ما، ربما انجذب تلقائيًا دون وعي لكل تلك القصص لكونه لا يقدر حتى الآن على حكي قصةٍ بصوته المتذبذب وتهتهته، لم يقدر يومًا على إنهاء قصصه الممتعة بشكلٍ لائقٍ، فيحاول إنقاذ الأمر بإضافة بعض التفاصيل التي لم تحدث، ولكن لن تضر لو أضافها، فتبدو القصة أسخف من السابق، ولا يجد في النهاية إلا رد فعل يحرجه للغاية، كالعيون المشفقة أو الساخرة أو أن ينصرفوا عنه بشكلٍ يبدو كالتجاهل التام وتغيير الموضوع حتى فقد رغبته بالكلام تمامًا، وصار مستمعًا أكثر مما هو متكلم، فأحبه الناس لكونه صار حائطًا للمبكي، هل يهتم الناس لو أراد حائطًا أن يزيح عن كاهله كل تلك الهموم والدموع؟ ولكن أدركوا أنه لن يستطيع لكونه حائطًا لا أكثر. بالطبع لن يهتموا فكل ما أرادوه منه هو أن يبكوا للتخلص من همومهم، لذا لم ولن يهتموا.

في النهاية بعد أن اكتفى عقله بالحكايات والحنين للماضي على الرغم من عدم تخطيه للثلاثينات بعد، صار كهلًا مثلهم، قلبه صار مجعدًا كبشرتهم، لم يعد يهتم بشكل ملابسه أو بتسريحة شعره ومدى تماشيهم مع الموضة أو العصر، فأصبح منبوذًا لا يجد نفسه بين صفوف الشباب أو جيش العواجيز، وظل في المنتصف، ولم يستطع الخروج منه.

فكرة وجوده على الحياد في كل الأمور جعلت تفكيره يبدأ في الاتجاه نحو كتابة الدراما الكلاسيكية عن الفتيات الحالمة والرجال الواثقين في أنفسهم أكثر من

اللازم والآباء الغاضبة والأمهات الدامعة.. بالطبع كان هذا في البداية قبل أن يجد أرض الدراما الواسعة للغاية ليملأها عن آخرها بطريقة سرده الممتعة.

في البداية كان منحازًا بشكلٍ صريحٍ للخيال.. متشدد الأفكار فيما يخص أدب الفانتازيا، يراه أعظم أدب خلق على وجه البسيطة.. مخه لا يلين في الدفاع عن أدبه وأفكاره.. نَصب نفسه صانعًا لأدب الخيال وحامي حماه الأول، صار ينادي وينشر أن فكرة كتابة الخيال ليست للجميع، وصمد أمام أمواج القراء العامة عندما قالوا بأن كتابة الخيال تليق بالأطفال والمراهقين، ولا ترقى لمرتبة القراء العِظام والمتمرسين، وظل صامدًا حتى اضطر لقراءة إحدى روايات الدراما في ليلةٍ حارةٍ، واصطدم عندها بالواقع الأليم بالنسبة له ولي أيضًا وهو أن هناك بعض روايات الدراما تكون أمتع بكثير من الروايات الخيالية.

ربما لم يتأثر في لحظتها مباشرةً، ولكن ترسبت الفكرة في قاع عقله لحين إشعار آخر، ثم عادت للظهور عندما اكتمل نضوجه، وبدأ في محاربة فرد جناحيه، والتحليق نحو شمس أرضٍ جديدةٍ آملًا أن يجد فيها نفسه، وتاركًا خلفه وحوشه التي خلقها، وعوالمه الخيالية بأساطيرها ومعاركها وتاريخها، أذكر يوم استيقظنا أنا وهو من حلمٍ حزينٍ اجتمعت فيه كل مخلوقات عالمه لتخبره برسالةٍ وحيدةٍ وهي

نحن نفتقدك كثيرًا.

***

انجرفت عاطفته، وتخطت المتوقع، ما قلته عنه لم يكن إلا جزءًا بسيطًا جدًا مقارنةً بما يشعر به، لهذا أنا وهو أقرب للأعداء.. أنا أستطيع إيجاد الخيال في أي شيء. أستطيع جعل أعمدة الإنارة تتحدث عن عالمها الذي يبدأ بعد أن يختفي البشر من الشوارع، وبإمكاني جعل العالم ينتهي عدة مراتٍ بسبب الأسماك

الغاضبة التي تحورت من مخلفات البشر الصناعية، أقدر على جعل السماء تمطر سيوفًا فوق قلة من المحاربين القدامى وهم على وشك خسارة الحرب بدلًا من السيوف التي تحطمت منهم، أملك من الحنكة ما يجعلني أخلق عالمًا كاملًا تعيش فيه الألوان كما تعيش البشر على الأرض بنفس الأساطير وبنظامٍ محكمٍ خاصٍ بهم وكائناتٍ خاصة مسخرة لهم.

أما عنه هو فسيحول كل أفكاري الخيالية إلى دراما.

سيجعل أعمدة إنارتي تتحدث عن وحدتها في القفور والقرى المنسية، وعن أنها ستموت لو لم تجد عابرًا للسبيل لتضيء طريقه، سيجبر أسماكي القوية والمتحورة على الحديث عن شدة معاناتها من شدة البشر، وسيعطيهم بالترتيب دورهم، لكي تحكي كل سمكةٍ قصتها عن كيف تمت أذيتها من قسوة أبناء آدم، سيهب المحاربين سيوفًا؛ ليكملوا حربهم، ولكن سيخلق مساحةً لهم حتى يستطيعوا حكي قصصهم قبل الحرب، وربما يجعلهم شهداءً في نهاية الرواية حتى يصبح الأمر دراميًا أكثر، أما عن عالم ألواني الممتع فحدث ولا حرج.

سيجعل اللون الأسود الباهت القادم من قاع الفقر يحب أميرة الأحمر التي يضاهي جمالها جمال أقمار عالم الألوان، سيثير فتنةً بين الألوان على من هو اللون الأجدر بحكم العرش. هل هو اللون الأبيض الأب، أم الأسود.. أو ربما بعض الألوان الدخيلة كالبنفسجي.. سيجرؤ على تشكيل عالمي كما تريد رغباته ومشاعره ومطالبته.

حسنًا.. ما هي رغباته؟

أن تعود (نوره) من أجله، وألا ترحل للأبد، لم تعد (نوره) ولو عادت لن تبقى؟ إذا فهي الدراما ولا بديل عنها، لهذا نحن عالقون في هذا المأزق حتى يختفي أحدنا، وأنا متشبث بالحياة لآخر رمق.

مللت من الجلوس فوق أحد الأرصفة؛ فقررت الذهاب للمنزل. لم تسفر جولتي القصيرة عن أي شيء، لم أجتر إلا الذكريات السيئة، وعاندتني الأفكار، وأبت أن ترسل إليَّ فكرةً جديدةً؛ لتغيير وجهة (كريم)، الارتجال لم يكن من شيمي، لذا أنا في موقف أحسد عليه.. فلا الكلام المعسول قد أتى بنتيجة ولا الخدع ولا الكره ولا أي شيء. لا تزيده أفعالي إلا تصميمًا.

والآن وصلنا لنقطة الاختيار.

مستقبلي وحياتي مقابل مغامرته الجديدة.

اللعنة عليه في كل الأزمنة.

***

بطلٌ سابقٌ

ساخِط، غاضب، حزين، لا أعرف كم عليَّ أن أبدأ هذه البداية، لا أجد لي نفقًا أبحث فيه عن ضوءٍ في نهايته، لا أذكر حربًا قاتلت بِها ولم أخسرها، نسيت كيف يمكنني التأقلم وتغيير جِلدي؟ كنتُ سيفًا في حروب الرُصاص، كنت بارودًا في ملحمة الليزر، انتهى بي الأمر فارغًا بكل الأحوال، نَفُذَ حِبري في آخر معركةٍ بدأتها، أساليبي قديمة، أسلحتي قديمة، أقلامي وأيامي قديمة، لا أرى العالم إلا من المنظور الرمادي، يعاتبني قناعي ومعطفي على ضعفي الأخير، وأتذكر أنني دائمًا كنت ثائرًا كالعاصفة، وإن بعد مرورِ كل هذا الوقت وجدت من كان قادرًا على احتواء الكون بين ضلعيه، ولكن لم يكن قادرًا أبدًا على احتواء العاصفة التي كُنتها أنا.

***

الحياة مجموعة من الاختيارات المعقدة التي تؤدي لقرارات عجيبة.

الشاب يستيقظ من نومه ساخطًا.. كارهًا نفسه وللدائرة اللانهائية التي لا تكسر أبدًا.

ليلة أمس كانت ليلته الأخيرة مع حبيبته الحمقاء غير العابئة مطلقًا لحالته النفسية بعد رحيله، نظر الشاب لنفسه في المرآة ليجد نفسه أقبح وأسخف وجه قابله في حياته. قبل أن يفتح صنبور المياه ليغسل وجهه أتاه الاختيار:

الذهاب للعمل أم المكوث في البيت اليوم.

ونظرًا لما حدث منذ البارحة كان القرار سهلاً، فاختار أن يكمل يومه بالمنزل متجاهلًا الجميع.

الاختيار في تلك اللحظة كان يبدو بسيطًا، ولكنه أدى لأحداث أعقد، فبعد غياب الشاب عن العمل في ذلك اليوم انتظرته زميلته وكأنها ستنتظر للأبد

لتعترف له بحبها، وأنها ستتقبل فكرة بؤسه وعدم اتزانه النفسي وستساعده.. لكنه لم يأتِ لذا وضعت الفتاة بين اختيارين:
أن تنتظر يومًا آخر وربما لن تعترف له أبدًا، أو تترك خلفها العالم وتذهب لمنزله لإقناعه.
والقرار أيضًا بدا سهلًا وقتها، فتركت العمل والأوراق العالقة، وأخذت حقيبتها متجهةً لأقرب بائعٍ للورد وبعدها الذهاب لمنزله.
ومن بين الأوراق التي ستعلق لليوم الذي يليه كان هناك ورقة تحتاج لموافقة بسيطة بختم بسيط لكي يستطيع صاحبها أخيرًا الذهاب لعمل عمرة والتوبة عن كل آثامه وذنوبه السابقة.
ترك الرجل الورقة، وذهب ليجلس في أحد المقاهي مبتسمًا، لأنه سيتخلص من وصمة عاره بتوقيعٍ سيأتي خلال ساعة، احتسى كوبين من القهوة وسيجارته الأخيرة التي أقسم أنه بعد هذه السيجارة لن يقرب الدخان أبدًا أو الشرب.
رأي الرجل الفتاة تركض خارج المبنى، فظن بهذا أنها قد انتهت من عملها، وأن ورقته قد انتهت، وأخيرًا الانتظار قد حَل بعد سنة كاملة من الروتين والوقوف في الطوابير والتعطيلات.
صعد مهرولًا نحو المكتب، فوجد الجميع يتجاهلونه، وأن الفتاة قد رحلت دون أن تنجز العمل.
سمع الرجل صوتَ تحطمِ شيءٍ ما بداخله، وأصوات متداخلة تخبره بأن توبته لن تأتِ قط، ورحل دون أن يقول كلمةً واحدةً، وعاد لمنزله. وبعد عودته ظل راقدًا في الفراش دون أن يكون به علةٍ ما، ظل ابنه يعتني به وهو يبكي حتى فاضت روحه وهو يطلب من الله السماح والغفران.

غضب الابن، وأحضر سكينًا ضخمًا، وذهب بهدوء، وذبح ما تبقى من الموظفين في المبنى ثم انتحر، ومدير الموظفين الغارق في دمه محدقًا في الفراغ كان أب حبيبة الفتى، لهذا عندما سمعت الحبيبة بالخبر لم تشعر بنفسها إلا وهي تبتلع أكبر كمية من الأقراص المخدرة؛ فماتت على الفور.

لم تنتهِ القصة ، بل قبل وصول الفتاة ظل الفتى يحاول الاتصال لحبيبته؛ ليعدل من قرارها السخيف بعد أن شعر أنه أفضل نسبيًا بعد التفكير بهدوء أثناء جلوسه بالمنزل، ولكن حبيبته لم ترد عليه أبدًا، فقرر إلقاء نفسه من الشرفة لعلمه السابق بعنادها الشديد وفتوره الشديد ناحية الحياة نفسها، فبعد رحيلها لم يعد لديه هدف يعيش من أجله، فحلقت جثته من الدور الخامس نحو الأرض؛ ليسقط أمام قدمي الفتاة، ويسقط من يديها الورد بين بحيرة الدماء والدموع التي بدأت في الاتساع تدريجيًا.

استيقظت من شدة الصداع، تاقت نفسي لكوبٍ ضخمٍ من القهوة، فاستحممت سريعًا، وارتديت ملابسي، واتجهت لوسط البلد. شعرت بأنني لستُ على ما يرام كأن هناك غيمةً حلت على رأسي.. سقط عصفورٌ ميتٌ عندما مررت بجانبه.. شعرت بمرارةٍ في الحلق، لم أستطع ابتلاعها.. توقفت لشراء المياه الغازية، ثم مشيت وتوقفت من جديد، واشتريت واحدةً أخرى.. نظر لي الرجل باستغراب فأخبرته أنني بانتظار أحدهم.. شعرت بالدهشة؛ لأنني أمسك بزجاجتين من المياه الغازية.. أخذت السيارة الأولى، ووصلت لمحطتي.. استوقفني رجلٌ عجوزٌ يرجو مني بعض المال، فرفضت إعطائه بأدب، ثم شعرت بتأنيب الضمير من أجله، ولسبب غير واضح تذكرت العصفور الميت، فعدت وأعطيت للرجل بعض المال الذي ركض به بعد أن شكرني إلى زوجته فرحًا كأنه قد فاز باليانصيب.

تحدثت مع نفسي بصوتٍ عالٍ عن كم أريد بعض القهوة!.. وأريد أن ينتهي هذا الشعور وهو شعوري بأنني نجمٌ سابقٌ يحكي للناس عن انتصاراته السابقة، والناس تعامله بشفقة أو تتجاهله، الظروف ضدي هذه المرة.. لا أجد يدًا حانية تربت فوق كتفي، ومللت من شعور اشتياقي لها..

سأظل مرتجفًا حتى النهاية.. في المرات السابقة كنت أتفاءل بفكرة كتابةِ عملٍ ما حتى لو فشلت، ولكن الآن الخوف يعتصر قلبي، لم أنجح في العثور على نفسي ولا عن فكرتي الدرامية ولا عن صوتٍ آخر غير صوتي؛ ليشجعني أو ينهرني.

وصلت للمقهى، وجلست في مقعدي الذي مل انتظاري إلا أنه على الأقل يعلم أنني سآتي.. ليتني أملك اليقين التام بأن أحدهم سيأتي لي أو سيعود من غيابه ليبقى للأبد، أظن أنني لن أملك القدرة على ذلك أبدًا.

سمعت صوتًا عاليًا في المقهى تداخل مع صوت أفكاري.. قبل أن أشعر بالاستياء، سمعت الصوت يقول:

ـ أنا لسه مقرتش (سماء الغزلان)، شوية مقتطفات بس.. لكن معتقدش أبدًا أنها هتكون أفضل أو أقوى من (فتى الريش) اللي كتبها نفس الكاتب.

سمعت صوتَ تصدعاتٍ آتيه من ركن فمي الأيمن الناتجة عن ابتسامتي. وشعرت بعظام ظهري تئِنّ من استعادة ذكريات (فتى الريش)

بعد فشلي الذريع في العمل الأول أقسمت ألا يتكرر هذا أبدًا، جلست أضع الخطة، وأكتب التفاصيل والخطوات التي لن أحيد عنها أبدًا حتى أصل لمبتغاي، لم يثق بي أي شخص، لم يتوقع أحدهم أو يرى أنني أملك الإمكانيات اللازمة لكتابةِ نصٍ فانتزيٍ يليق إلا صديقتي.

لم أجد - رغم محاولاتي- مكانًا بين الروائيين الموجودين من قبلي، بدأت لعنة الحديث مع نفسي بصوتٍ عالٍ دون الاهتمام لوجود بشرٍ من حولي أم لا، بدأت في نشر مشاهد كاملة من العمل قبل نشره؛ لأريهم قدرتي في صفحتي الشخصية والمجموعات وأي مكان قد يهتم فيه الناس بالقراءة، راقبتهم يقولون الفتى جيد قد ينجح لكنه لن يصير عظيمًا أبدًا مثل الروائيين الآخرين، كنت ساذجًا.. ظننت أن التقييم يأتي على جودة العمل، ولكن اللعبة لا تدار هكذا كما عرفت فيما بعد.

التقييم يأتي لو كان صاحب النص مشهورًا أو وسيمًا أو يملك جسدًا مثيرًا.. أو ربما يأتي لأن لديه علاقاتٍ نسائية ضخمة أو يعرف الطريقة الصحيحة للتملق.. أو لو كان بإمكان الكاتب اللعب على مشاعر القراء بشكلٍ يستغلهم كي يظنوا أن الكاتب قد جعل منهم بطلًا في رواياته؛ ليكسب تعاطفهم، ويكسب أموالهم بالطبع حتى لو كان الكاتب لا يعرف قواعد الإملاء الصحيحة، ولا يقدر على سرد جملة بشكلٍ لائق، ولكن كل هذا عرفته فيما بعد، وأما عن وقتها كانت آرائهم تحاول إصابتي باليأس، وتدمير حصني الذي بدأت في تشييده من حولي لحمايتي من الوقوع مبكرًا، ربما شعرت باليأس والحزن في بعض الأوقات أثناء كتابتي.. قررت الاعتزال بيني وبين نفسي مليون مرة، لم أسمح بأن يرى أي شخص ضعفي أو يشعر بهزائمي المتتالية.. أخذت الكره طاقةً تدفعني للأمام.. مقابل كل رأيٍ سلبيٍ أكتب أكثر.. قابلت عثراتٍ وتقلباتٍ، وظللت واقفًا صامدًا للنهاية، لم أنتبه لكوني وحيدًا أو مغمورًا أو مستضعفًا حتى انتهيت من كتابتها، وجلست أستمتع بشعور الخواء.

كنت أعلم أن الطريق قد بدأ للتو، كل ما حدث بالسابق ما هو إلا مجرد البداية. أصابني الأرق من كثرة التخطيط للمستقبل.. وددت لو كان للحظة ملكت شخصًا لأتكئ عليه.. ليبادلني الحديث ويستمع لأفكاري، ويناقشني، ولكن لم أجد إلا صوتي الداخلي يخبرني بأننا معًا للنهاية في مرارة.

تجاهلتني دور النشر الكبرى بعد أن أرسلت (فتى الريش)، حضرت مئات الندوات؛ لكي يتعرف الروائيون الآخرون على شخصي، تحملت سذاجة وضحالة أفكار روائيين يظن الناس أنهم آلهة، بدأت في تحديد مكانة كل دارٍ تقع في طريقي، سمعت مئات الوعود والكثير من الكلام المنمق المهذب الذي يشير بعدم الاكتراث، بقيت لشهور أرحل من شرق القاهرة لغربها من أجلِ وعدٍ صادق لم أجده، مرت السنة وشعلة حماسي قد بدأت في الانخماد، هاجمتني شياطيني مع كل كلمة لا أحصل عليها.. شككت في قدرتي وموهبتي.. اكتأبت لأيام طويلة، استحوذت على عقلي فكرة واحدة كادت أن تؤدي إلى مقتلي وهي الخوف من كوني لم أكن موهوبًا قط.. أو لم أقترب حتى من كوني جيدًا. ولأن الحياة مليئة بالصدف وقعت أمامي كل ما يشير لحقيقة الفكرة المستحوذة على عقلي. شاهدت أثناء جلوسي مع عائلتي أشخاصًا سجلوا أسماءهم في برامج عرض المواهب لكي يحرجوا أنفسهم فقط.

رأيت مغنيًا يملك صوتًا قبيحًا يؤدي أمام الجمهور والحكام وإجابته على سؤالهم قبل أن يبدأ كانت دائمًا بأن كل من حوله أخبروه بأنه يملك الموهبة وسرعان ما يبدأ في الغناء، أجد أن الفتى يثق بمن هم حوله بشكلٍ أحمقٍ ليسمح لهم بأن يقنعوه بذلك، يؤلمني قلبي بعد مشاهدته أثناء وصلة الضحك والسخرية التي تعرض لها من الجمهور المتواجد معه في القاعة ولجنة الحكام وعائلتي، والفتى يصر بشكلٍ غريبٍ على أن يحرج نفسه بصوته البشع ليس

شجاعةً منه كنت سأحترمه وقتها.. لكن لأنه مازال مؤمنًا بأنه يملك الموهبة، وأن صوته سيغزو الكون يومًا ما، وسيصير له نشيدٌ رسمي يردده الناس.
والفتى لم يكن الوحيد في الفقرة، بل كانت هناك فتاة سمينة تظن أنها سندريلا الجديدة.. على الرغم من عشقي للفتيات الممتلئة إلا أنني كرهتها بقدر رغبتي في أن أعانقها.
هي لم تكن فتاة بالمعنى الحرفي بل كانت في أواخر العشرينات، ترتدي فستانًا صغيرًا يشبه فساتين سعاد حسني، ترتدي قبعةً ضخمةً، وتضع أحمر شفاة جعلها تبدو جميلة ولكن من منظورٍ خاصٍ.. توقعت الكارثة القادمة بمجرد نطقها لكلمتها الأولى في التقديم، رأيت من خلال عينيها حزنًا عميقًا لفتاة تود أن تحظى بقليلٍ من الاهتمام، شاهدت دموعها المقهورة من تنمر زملائها في المدرسة لزيادة وزنها، تخيلت منظرها وهي عارية في الظلام أمام التلفاز تقارن جسدها الممتلئ (المثير من وجهة نظري) بجسد آلهة الجمال وڤينوس الوطن العربي سعاد حسني، وغرفتها مغلقة عليها فقط؛ لتخرج من الغرفة فيما بعد بشعرٍ قصيرٍ غير متناسق وفستانٍ كان في الماضي طويلًا والآن صار مسخًا مشوهًا لرداءٍ قصير وبعينٍ دامعة وكحلٍ ذائب تقول الفتاة لأمها.
ـ بصي يا ماما، أنا بقيت شبه سعاد حسني
فتبكي أمها، وتبتسم، وتوافقها الرأي، وتقول:
ـ لا وأجمل كمان.
هنا كانت بداية الطريق لحدوث الكارثة، فالأمر قد تطور إلى يقين تام بأنها قد صارت سندريلا الجديدة، خلعت الحجاب، وأبدلته بالقبعات.. ألقت ملابسها الواسعة الطويلة في القمامة، وارتدت الفساتين القصيرة الكاشفة عن فخذيها.. زادت مساحيق التجميل حتى اختفى لون وجهها الأصلي، زادت

دائرة معارفها نتيجة أسلوب حياتها الجديد.. صارت تقدم نفسها باسم سندريلا حتى ضاع اسمها الأساسي؛ لأنه لم يعد مفيداً، تخلت عن صديقتها القديمة؛ لأنها لا تشبهها، وجاء الوقت الذي توقفت فيه عن تقليد سعاد حسني، وأصبحت هي سعاد حسني.. تطور الأمر لمستوى أعلى وهو الغناء.. في حلقات السمر وفي إحدى الليالي شعرت بأن الانتباه قد رحل عنها.. خشيت من أن تعود كالسابق، فبدأت بالغناء بصوتٍ خافتٍ تدرّجًا حتى وصل صوتها لأقصى قوته ومع ذلك لم يكن واضحًا أو به أي شيءٍ من الجمال، لحظتها انتبه إليها جميع الجالسين وهم ينظرون لبعضه البعض ويتغامزون.. قرروا لحظتها أن يشاركوها اللحظة، وعلموا أنهم أخيرًا حصلوا على تسليتهم لليلة، شجعوها وبداخلهم سخروا منها بشدة، الفتيات قالوا لها بعد انتهائها بأن صوتها يشبه صوت السندريلا تمامًا، والفتيان شجعوها بالتصفيق بعد صمتها خجلًا؛ لأن صوت التصفيق كان سيغطي على صوتها بالتأكيد، وفعلوا ذلك ليس حبًا فيها بل ليكملوا الخدعة وأيضًا طمعًا في اللحم الأبيض الذي تكشف عنه دون قصد، وفي نهاية الليلة نام الجميع راضين، معظمهم وجد تسليته فيها لباقي أيام الرحلة، وأحدهم فاز بها وضاجعها، ثم نام راضيًا من أثر الشهوة، وهي قد حصلت على علاقتها الأولى والاهتمام والدعم وصارت في دائرة الانتباه، فنامت راضية دامعة تردد مبتسمة:

ـ الحياة بقى لونها بمبي.

استمرت الخدعة، وبدأ الملل في العودة من جديد قبل أن يقترح أحدهم أثناء غيابها وهو يشاهد الأخبار الجديدة بإقناعها بالانضمام والتقديم لبرنامج المواهب الشهير، راقت لهم الفكرة جدًا، وبدأوا في التنفيذ فورًا وبمجرد عرض الفكرة وحماس الفتيات لتجميلها والفتيان للحصول على استمارة التقديم

وافقت على الفور وهي تنظر لعيني الشاب الواقعة في حبه بعد أن مارست الجنس.

سهروا على تجهيز مقطع مرئي؛ ليتمكنوا من إرساله للبرنامج، جعلوا منها فتاةً جميلة، ولكن بالطبع لا تمت لسعاد حسني بأي صلة.. عالجوا صوتها بقدر الإمكان؛ ليبدوا عاليًا واضحًا وجيدًا بما يكفي لأن يقبلوها، الخدعة أخذت منحنىً ضخمًا، فأصدقاؤها تخيلوا شكلها أمام اللجنة الساخرة منها بكل تأكيد والجمهور المستهزئ، وعندما تبكي أمام الجميع سيماثل المشهد ذروة المخدرات والجنس معًا وهذا ما حدث.

أرسلوا المقطع باسم سندريلا تُبعث من جديد، انتظروا ليوم قبل أن تأتي الموافقة بالحضور مع تذكرة لمكان تقييم الأداء والمسابقة، كانت اللحظة الوحيدة التي احتفل جميعهم فيها بكل صدق، ومارست الجنس لعدة مرات من شدة الفرح حتى لم تعد تملك أعصابًا لترفع كوب ماء، ونامت في تلك الليلة وهي تحلم بالنجومية والشهرة وربما الأفلام والفيديو كليب، ولن تتنازل عن دور البطولة نظرًا لموهبتها الجبارة.

وبعد أسبوع.....

رأيت قلبها يَحطّم على المسرح أمامي، ولكنها لم تبكِ قط.. لم تبكِ مطلقًا.

***

حاولت إخفاء دموعي أمام موقفها محاولًا طرد الفكرة بأنني هناك مكانها، أشحت بناظري عن التلفاز، ودخلت غرفتي لأجتر أحزاني وحيدًا، شعرت بأن كوكبًا بحجم الأرض يجثم فوق صدري، استحوذت الفكرة عليّ تمامًا، رأيت كل من أعرفهم يجتمعون يسخرون من كتاباتي، وأملي البائس في الوصول للمجد، ولا يعرفون متى ستنتهي خدعتهم لأنها راقت لهم. أصابني

اليأس في مقتل.. لم أقدر على الحديث مع عائلتي وأصدقائي القليلين، وكدت أن أنهي حياتي ظنًا مني بأنها نهاية القصة، فالآن بحسبةٍ بسيطةٍ أنا لا أملك المال.. الحب.. الصُحبة.. الثقة بالذات.. الشهرة.. ولا أملك حتى إرثًا يُذكّر الناس بي بعد أن أموت.

ثم في نفس الليلة حدثت المعجزة، وجدت رسالةً وحيدةً في صندوق رسائلي بأن فتى الريش قد تمت الموافقة عليها، وأنهم بانتظاري لتوقيع العقد ومناقشة التفاصيل. ظننت أنها خدعةٌ ما فبحثت عن كافة التفاصيل الخاصة بدار النشر تلك فوجدت أنها لا بأس بها كبداية.. كنت قد أرسلت لهم الرواية من باب الملل، ونسيت الأمر.

بعد أن تأكدت من أنها ليست خدعة بدأت في تجهيز نفسي، ومحاولة لم شمل نفسيتي، والابتسام للعالم من جديد؛ لعلني أحصل على فرصةٍ حقيقية هذه المرة، وفي يوم التوقيع تأنقت كأفضل ما يكون، وصففت شعري للمرة الأولى منذ سنين بشكلٍ يليق بالحدث، أخذت أموالي القليلة وحقيبتي السوداء، وذهبت لمكان التوقيع قبل الموعد بساعةٍ كاملة، وجلست أشرب الشاي بعقلٍ صافٍ، أخيرًا هدأت شياطينه عني.

جاء صاحب دور النشر ومعه مدير التوزيع، حيّيوني كأننا أصدقاءٌ قدامى.. رحب بي أولًا في دار نشره، وقال أنه سيكون بيننا عملٌ عظيمٌ؛ فضحكت، أخرج العقد وطلب مني قراءته على مهلٍ، بنود العقد كانت مناسبة، له شروط تحفظ حقه، وأخرى في المقابل تعطيني حقي، ولم أجد شيئًا يضر، فوافقت مبدئيًا على العقد.

شرطه الوحيد غير المكتوب بأنني سأتكفل بصناعة غلاف الرواية بأموالي الخاصة، فلم أجد مشكلةً في ذلك، فوقعنا العقد، وأخذنا بعض الصور، ثم

ظللنا نتحدث عن سوق الروايات ومخططات دار النشر فيما بعد، وكل ما صدر مني هو ابتسامة بسيطة تخبئ ورائها هدوءًا مريحًا أزاح كل ما كان في قلبي من هموم.

مشيت في شوارع وسط البلد معانقًا للعقد.. غير مصدق بأنني وضعت كلتا قدمي على طريق الوصول للقمر لكي أضع بصمتي عليه، احتفظت بخبر التوقيع لنفسي، ولم أخبر أحدًا، بدأت في البحث عن الحساب الشخصي لأحد المصممين، وتواصلت معه من أجل صنع الغلاف، فرحب، وبدأ في العمل فيه على الفور.

بعد مرور يومين أرسل لي الغلاف الأوَّلي حتى أعطيه موافقتي ليكمل أم يبدأ في تصميمٍ مختلف، انتظرت تحميل الصورة قبل أن أصدم من روعة وجمال الغلاف، اغرورقت عيني بالدموع بعد أن رأيت فتى الريش مجسدًا بأجنحته البنفسجية محلقًا في سماءٍ حمراءٍ، شعرت بأنني أرى لوحة من عصر قوطي، ولم أكن مبالغًا. أرسلته سريعًا للدار، وأخذت الإذن بأن أنشره على الصفحة الشخصية فوافقوا.

لم أتحمس مطلقًا لشيء مثلما تحمست لنشر الغلاف، وضعته على صفحتي الشخصية والمجموعات، وصنع صدى لم أتوقعه أنا شخصيًا، وجدت الحياة قد اختلفت بعد نشر الغلاف.. زاد معدل وصول كتابتي لثلاثة أضعاف.. وجدت كُتَّابًا مهتمين بأن نصبح أصدقاء، وصارت لدي حياةٌ مزدحمة، وجدت بعد مرور خمسة أيام من نشر الغلاف أن حياتي بدأت تأخذ منحنى متصاعدًا بشكل رهيب، وللحظة شعرت بأنني قد وصلت للقمر بالفعل.

***

شعرت بالسخط من الصوت الذي قاطع أفكاري.. حاولت تمالك نفسي واستعادة توازني وزمني، فوجدت نفسي أحدق في عينيْ فتاة لا أعرفها.. احمررت خجلًا، وأَشَحْتُ بنظري عنها سريعًا، فكررت سؤالها:

ـ هو مش إنت كاتب فتى الريش؟

توترت وأجبتها:

ـ أيوه، فيه حاجة؟!

قالت:

ـ لا مفيش.. مصدقتش (محمد) وهو بيقولي إنك إنت الكاتب.. أنا عايزة أقلك إني متابعة كل حرف بتكتبه بس للأسف مقرتش (سماء الغزلان)، وأتمنى أنها تكون أحسن من (فتى الريش)؛ لأني مقرتش حاجة بنفس قوتها.

خجلت مجددًا، وتلعثمت، ولم أقل كلامًا واضحًا، وبقينا صامتين بعدها لدقيقة قبل أن تتنحنح، وتتأسف، فابتسمت محاولًا كسر الجليد، ولكن قد فات الأوان؛ لأنها تركتني، ثم رحلت.

كانت فرصة لا تعوض، وكنت على وشك إهدارها، إما أن أبقى ضائعًا في ذكرياتي أنتظر شخصًا لن يأتي أو أستغل الفرص، هرولت خلفها قبل أن تبتعد؛ لأخاطبها، بدا السخط على ملامحها، ولا أدري من أسلوبي في المقهى أم من لحاقي بها هكذا، فقررت أن أعتذر دون أن أبدي أسباب.. ظل وجهها يحمل نفس التعبيرات قبل أن تهدأ، وتبتسم، ثم قالت:

ـ مسمحاك.. بس عقابك تعزمني على فنجان قهوة.

أثلجَ قلبي بساطتها، ووافقت فورًا، وعدنا للطاولة وكأننا أصدقاءٌ. بعد الفنجان الثالث شعرت بأننا صرنا مقربين، لم أدرِ هل هذا بسبب عدم تواجدي مع شخصٍ منذ مدة أم أنها تحاول كسب ودي منذ جلسنا؟ حدثتني عن (فتى

الريش) من زاوية لم أتوقع أن يراها أحدٌ غيري.. ظلّت تذكرني بتفاصيل أدعيتُ عدم تذكرها؛ لاستمتاعي برؤية نشوة الحوار والنقاش على ملامحها.. ظلت تعيد عليّ وتزيد أنها انتظرت قراءة الجزء الثاني، وتوقفت عن القراءة حتى علمت بصدور (سماء الغزلان) التي ظلت تؤجل قراءتها حتى لا ينتهي الحماس سريعًا على الرغم من ندمها على عدم حصولها على الطبعة الأولى، فأخرجتُ لها نسختي الخاصة من حقيبتي بكل تلقائية، فأخذتْها بشغف بأعينٍ تلمع قبل أن تطلب مني بلهجةٍ رسميةٍ عابثةٍ توقيعًا خاصًّا لها، فقلت:

ـ توقيعي الخاص تمنه غالي جدًا، هتقدري عليه؟

ـ أي حاجة هتطلبها هعملهالك.

ـ خلاص.. إيه رأيك، ميعاد جديد؟

فأدعت التفكير للحظة، ثم وافقت ببساطة، فأخرجت القلم؛ لأكتب لها توقيعها قبل أن أسألها:

ـ هو إنتِ صحيح اسمك إيه؟

نظرت إليّ قائلةً:

ـ مريم.. اسمي مريم، وأنا حلمت بأني بقلك اسمي من زمان أوي.. يا فتى الريش.

***

سحاب في عطلة

حسنًا، (كريم) سعيد بما يحدث له حاليًا في حياته، فقد بدأ يشعر بأنه وسيم نسبيًا، وبأنه رائعٌ يستطيع الاهتمام بمن معه.. يقدر على حل أي مشكلة تقع بها (مريم)، يمكنه أن يجلس مستمعًا لحديثها عن نوع ولون طلاء أظافرها الجديد الذي يشبه بالضبط لون فستانها الجديد لساعات.. هو بالتأكيد لم يفهم أي كلمة مما تقولها، وتاه في منتصف الحوار محاولًا تخيل كيف يمكن لها أن ترتدي (كاشميرًا) فوق فستانها الجديد قبل أن يكتشف أن الكاشمير هو لون طلاء الأظافر، وليس نوعًا من القماش كما كان يظن.

أعتقد أنه أخيرًا وجد شيئًا يستمتع به في الحياة بشكلٍ يجعله كما لو كان في عطلة، لذا سآخذ أنا الآخر عطلةً؛ لأجوب بقاع الكون مطمئنًا عليه وعلى مستقبلي وحياتي؛ لأن (مريم) احتلت حياته، وأسقطت حصونه بلقبٍ واحدٍ أطلقته عليه في ليلةٍ فارقة، فلم يعد لديه الوقت لكتابة الدراما أو الخيال للآن، لذا سأعطيه عطلته، ولآخذ عطلتي وعندما أعود يمكننا أن نتقاتل مجددًا.

***

الخوف

الحياة هادنتني من جديد كما يبدو، شعرت بأنني وجدت سببًا لأن تستمر حياتي، لم تتركني (مريم) للحظة منذ اقترابنا.. وجدت العالم يأخذ شكلًا آخر في عيني.. فكنت قبلها لا أهتم بأية تفاصيل دون تفاصيلي.. لا أرى ما لا يقدر على جَعْلي أشعر بمشاعرٍ دفينةٍ سواء كانت سلبية أم إيجابية، أما معها صارت الشوارع أجمل.. المباني ألطف على الرغم من رأيي السابق فيها بأنها شديدة القبح، وسبب رأيي بسبب كرهي الشديد لأن يأخذ وصفي لتفاصيلها حيزًا من كتاباتي وتفكيري إلا أن الآن بصرتُ تفاصيلًا لم أدركها من قبل، الشوارع

الخالية تشبه قلبي العجوز قبل (مريم)، وخصوصًا شارع جمال عبد الناصر بعد الثانية عشر ليلًا، المباني بها تجاعيد تحكي كلٌ منها قصة تكفيني لباقي العمر.. فجأة صار العالم في عيني ثلاثي الأبعاد ملونًا بشكله الفوضوي المألوف، وأحببت ذلك بشدة.

تشابكت أيدينا في كل شبرٍ بوسط البلد، لم نمل أبدًا من المشي ليلًا، وكأننا آخر اثنين على وجه الأرض، وكانت هذه من إحدى أمنياتي العديدة، تحدثنا بدايةً من ميدان التحرير إلى طلعت حرب، وأخذنا بعض الصور أمام كافيه ريش بعد محاولاتي المستميتة بأن ندخل إلا أنها رفضت.. في كل ليلة كنا نختار طريقًا مختلفًا عن السابق سواء كان عبر شارع شريف المضيء دائمًا أو نحو عبد المنعم رياض.. لم تبقَ أرض لم نحتلها في وسط البلد إلا شارعي المظلم الحبيب بعد الإسعاف الذي كنت قد أخذت قرارًا بأننا لو مشينا من هناك فسأقبلها، وهذا ما حدث بالفعل.

الليلة كانت ساحرة.. باردة قليلًا كما أحب، كنا منتشين كما يجب بفعل الصحبة وفنجان قهوةٍ مضبوط، ركضنا، وضحكنا، ولم يهتم بنا المارة العائدون من عملهم محني الظهر أو العشاق سيئو الحظ الذين لا يجدون ملاذًا يأويهم في آخر الليل فيتعانقون في الظلام آملين في غدٍ أفضل بأربعة جدران. ارتحنا لأننا لم نكن نشبههم، فلدينا المأوى والوقت والقدرة والرغبة، ولكن نأخذ الموضوع بتمهلٍ كامتصاص قطعةٍ من الشكولاتة.

تحدثنا كأننا التقينا للتو.. صمتنا بعدها، وتبادلنا النظرات، إما الآن أو لأصمت للأبد.

انتظرت اللحظة المناسبة، ثم أخرت نفسي قليلًا، وأمسكت بكفها المتأخر، وجذبتها نحو حضني فسمعت آهةً خافتةً رنت كألف جرسٍ في أذني،

وزلزلتني.. وددت لو كان (سحاب) هنا ليوقف لي الزمن.. هذه اللحظة فقط وأقسم بأنني سأكتب له كل ما يريد من أفكاره الجهنمية، وسأعتزل الدراما، ولكن أعطني هذه اللحظة، لأحتفظ بها بداخلي للأبد. إلا أنه لم يكن هنا، فأكلت شفتها السفلى بكل نهم، ثم بدأت في مص رحيق شفتيها ولسانها.. في البداية ظننت أنها ترفض الفعل قبل أن تنهار وتبدأ في التهامي هي الأخرى قبل أن تفترق شفاهنا لاهثين من فرط اللذة، ثم نعاود الكرة مرة أخرى.

الحدث نفسه أخذ من عمرنا ما يقارب خمس دقائق.. ومن عمر الكون أخذ قرونًا.

رأيت أراضٍ جديدة تنشق.. محيطاتٍ تنبثق من العدم.. سلالاتٍ جديدة ترقص طربًا بعد اكتشاف لونٍ مختلف، شاهدت جبالًا تحتضر.. أشجارًا تتقافز فرحًا بثمارها بعد عامٍ من الجفاء.. شاهدت وعاصرتُ حضاراتٍ تبدأ وأخرى تنتهي فيها كنتُ ديناصورًا عملاقًا.. غرابًا متكلمًا.. حجرًا راقصًا، كنت إنسانًا بدائيًا.. اكتشفت النار.. رأيت حمم النيازك، ومع كل ضربة رأيت نفسي في زمنٍ مختلفٍ بتفاصيلٍ وجسدٍ لايشبهونني، ولكنهم أنا.

لم تدرِ بالطبع ما جال في عقلي خلال اندماجنا الأول، ولكنها شعرت بانتشائي؛ فهاجمتني مستغلةً لحصوني الساقطة. أخبرتني هامسةً بأننا لو بقينا هنا سنبقى إلى الأبد، وأنه علينا أخذ الموضوع بروية وهدوء؛ فعانقتها عناقًا أخيرًا، وذهبت لأوصلها.

اطمأننت على وصولها سالمة في غمرة، وعدت مشيًا إلى رمسيس أفكر في ما حدث، كانت هذه قبلتي الأولى لفتاةٍ أكن نحوها مشاعرٍ ما، لم أتأكد بعد من مشاعري على الرغم من أن علاقتنا بدأت منذ زمن، ولكن الرغبة المستعرة بداخلي أثناء وجودها فوق صدري هي أن أنطق بها.. تبدلت مشاعري من

البهجة إلى التوتر.. فهي على الرغم من كونها كلمة بسيطة يسهل كتابتها، ويتم النطق بها سواء كان بشكلٍ كتابي أو صوتي مليون مرة في الدقيقة، كلمة بسيطة من أربع حروف لا يختلف شكلها عن شكل الكلمات والحروف الأخرى، ولكنها أثارت في صدري جحيمًا لا يوصف، شعرت كأن الكلمة بمثابة ذبابةٍ في كوبٍ من اللبن في البداية قبل أن تتخذ مكانًا في قلبي وعلى لساني.. فصرت أتحرق لنطقها، فربما تطفئ جحيمًا مستعرًا خلفته هي، قاومت يدي لئلا أقولها.. أو كتابتها لها في صندوق الرسائل الصغير أو على جوابٍ معطرٍ بعطري الخاص.

في السنين السابقة ربما قلتها لفتياتٍ لا حصر لها.

قلتها لهند كأول مرة لرغبتي في الارتباط وخشيتي من ألا أجد مكانًا لي في عالم الحب.. لم أحبها حقيقةً، وبعدها قلتها لصفاء؛ لكونها تملك جسدًا مثيرًا، ولهاجر؛ لتصرفاتها الطفولية التي أشعرتني بأنني ملكًا للكون؛ لأنني كنت أنظم لها تفاصيل حياتها.. نطقت بها لزينة وكريمة وتقى ومروة، وفي كل مرة بدت لي الكلمة بأنها في مكانها الصحيح، وأيضًا لم تستمر علاقتي مع أيٍّ من تلك الفتيات، وأيضًا نطقت بها لولاء ولنوره.. نطقت بها لهن حتى كدت أن أفقد مذاقها؛ لأنني لم أجد شيئًا في المقابل، لم أشعر أن الكلمة تليق بهن، ولكنني أحببتهن بصدق.. لم أخنهن وخصوصًا (نوره) حتى ولو في خيالي.. وددت لو اقتطعت الجزء الأجمل في قلبي؛ لأعطيه لها، ومع ذلك لم أشعر بأنني في مكاني.. فهي لم تنطق بها حقًا.. أو نطقت بها ولكن من دون لهفة أو اشتياق لعلمها المسبق أنها راحلة.. إنني مجرد اختيار مثير لليالي الصيف المملة، وبعد أن يأتي الشخص المناسب ستعطيه هي قلبها والجزء الأجمل من قلبي الذي أهديته لها.. ربما لو وصل الأمر لرقصت فوق رأسي المفصول أمام رجلها المناسب لكي

تحصل عليه.. أما عني فأنا مجرد شهابٍ محترقٍ.. ألقى ما يملكه من مشاعر وكلمات، وخصوصًا تلك الكلمة والدموع والألم تحت قدميها، وفي النهاية اختارت غيري.. هي والآخرين، وتركوني بحساسيتي المفرطة، وخوفي المرضي وذعري الدائم، وبأنني رداءٌ بهت من كثرة استخدامه.

ربما اختلف الشعور مع (مريم)، فأنا في المكان الصحيح، والكلمة التي فقدت بريقها من كثرة استخدامها صارت لامعة من جديد وقلت لنفسي بصوتٍ مسموعٍ:

ـ دي قالتلي يا (فتى الريش).. هي أكيد بتحبني.

وصارت الكلمة مسلَّمًا بها، سأعترف بها بعد لقاءٍ آخر.

***

في الليلة التالية كنا معًا في فراشي.

استيقظت من نومي الهادئ، ألوك طعم قبلة ليلةِ أمس التي تركت في فمي مذاقًا لذيذًا أعطاني شعورًا منعشًا، تذكرت الخواطر المسيطرة على عقلي بعد أن تركتها، فضحكت في سخرية من نفسي.. لعدم تأكدي من حبها لي أو من استمرار علاقتنا، فربما تستيقظ اليوم، وتشعر بأن ما حدث ليلة أمس كان خطأً، وأنه لا يجب أن يتكرر، لذا ستنهي علاقتها بي على الفور، ولكن قاطعني صوت محمد محسن وهو يصدر عن هاتفي يشدو قائلًا "أنا أتوب عن حبك أنا" واسمها يظهر على الشاشة، ويطلب مني بإلحاح أن أرد.

رددت متوقعًا الأسوأ، فبدأت حديثها، وقالت:

ـ وحشتني.. أو أوحشتني زي ما (فتى الريش بيقول)

لم أتمالك نفسي، وقلت:

ـ وإنت كمان أوحشتني.. إنتِ فين؟

ـ أنا في البيت، كنت نازلة وسط البلد بس بعد ليلة إمبارح مهانش عليا أنزل من غيرك.

قلت ساخرًا:

ـ اممم.. أنا مشربتش الشاي بتاعي فمش هقدر أنزل الحقيقة.

ردت بكل تلقائية:

ـ خلاص.. هجيلك أعملك الشاي وبعدها ننزل سوا..

الظروف كانت في صالحي هذه المرة لكون البيت خاليًا لأسبوعٍ كامل. فقلت لها مرحًا:

ـ لو أتأخرتي هقتلك.

فضحكت، وقالت:

ـ مش هتأخر، سلام.

أرسلت لها العنوان عن طريق الواتس آب، وبدأت في تجهيز غرفتي.. رتبتها مرة، ثم أعدتها لفوضاها السابقة.. استحممت.. صففت شعري، فبدا متناثرًا مشعثًا أكثر مما كان سابقًا، تأكدت من غسل كل الأطباق والأكواب ليليق بزائرتي الأولى.

ارتديت تي شيرت للأرسنال، فشعرت بأن هذا سيكون فألًا سيئًا على الرغم من أن لقبهم المدافع.. ضحكت كثيرًا على هذه الخاطرة، فخلعته وارتديت آخر للريال ثم نظرت في المرآة، ووجدت نفسي وسيمًا واثقًا للمرة الأولى منذ سنين، جلست أمام الباب أنتظرها، وللحظة خشيت من أنها قد لا تأتي قبل أن يقاطعني جرس المنزل، ففتحت مسرعًا؛ لأجدها ترتمي بين ذراعي، وتغلق الباب بكعب قدمها.

تنفست عطرها الذي تجدد عن ليلة أمس.. سحبتها أكثر نحوي، ووضعت أنفي بين خصيلات شعرها المموج مغمضًا عيني في سلام.
قلنا في نفس اللحظة بصوتٍ هامسٍ:
ـ أوحشتني.
مرت الدقائق بعدها بشكلٍ غير مفهوم، راقبتها تعد لنا الشاي على مهلٍ، ثم تعللت بتأخر الوقت على الرغم من أنها كانت السادسة مساءً، فدخلت غرفة أمي بكوبها؛ لتبديل ملابسها، وارتدت زيًا فضفاضًا أثارني بشدة، أنا كنت أعلم وهي كانت تعلم والجيران والحي والعالم كله كان يعلم ما سيحدث الليلة، شربنا الشاي ونحن نتحدث عن مواضيعٍ عدة متفرقة لم تكن مهمة بقدر ما كانت تمهيدًا لما سيحدث.
وضعت الكوب بعد انتهائي منه، وأخذتها من يدها لأريها دهاليز غرفتي، قلت لها وأنا أفتح الباب بشكلٍ مسرحي:
ـ مرحبًا بكِ في عالمي.
أريتها ألعابي ومكتبتي وفراشي ولوحاتي السوداوية المزينة للحائط.. ومكتبي غير المنظم بكرسيه المريح وأوراقي وأقلامي، ثم تركتها تعبث بأشيائي مستمتعة، فجلست على حافة الفراش أنظر إليها متعجبًا من تحمسها الشديد، بعد أن ملت جلست بجانبي صامتة تنتظر خطوتي.. كالعادة، ثم لم أشعر بنفسي إلا وأنا أقبل شفتيها فصار الأمر كقصص الخيال.
فعلناها أربع مرات، ضحكنا منهكين بعد المرة الرابعة، ونمنا على الفور.
كان نومًا هادئًا لذيذًا عوضني عن أرق الأعوام السابقة، استفقت على قبلتها، فعانقت رأسها، وظللت ألعب في شعرها بشكلٍ أفقي، وشعرت بها تهدأ وتسترخي.

قبل أن نبدأ المرة الأولى أخبرتها محاولًا إخفاء رغبتي في نطق الكلمة اللعينة بشكلٍ ساخرٍ وقلت:

ـ مهما كان اللي هيحصل هنا في أوضتنا.. وعلى السرير هنا ملهوش دعوة بعلاقتنا براهم، فجذبتني نحوها بشدة وفعلناها.

غصت في عينيها اللامعتين أثناء وجودي فوقها، كانت لمعةَ حبٍ لم أخطئها أبدًا، لمعةٌ أزالت عني كل التوتر والخوف، وجعلتني أصرخ، وأنا أقولها عند وصولي للذروة، ولم أشعر بالقلق قط.

قلتها مليون مرة.. وأنا أقبلها وأضاجعها، حتى ظننت أنها كلمتي الأولى بعد عامين من الخرس.

بعد أن جاء الصباح التالي ورأسها فوق صدري.. تذكرت بأنها لم تقلها ولو مرة وحيدة تشبع بها نهمي نحو سماعها، فقبلت رأسها استجديها بأن تقولها.. أرجوها وبلمساتي ونظراتي وقبلتي، ولكنها لم تنطقها أبدًا، وأنا لم أطلب منها علانية.

أعدت لي الطعام عارية، وأحضرته لي في الفراش، وجلست تأكل معي كأننا زوجين.. كنت هادئًا رائقَ البال لم أشعر بالوحدة أو بالخوف، فأزحت صينية الطعام، وبدأت نوبة حبٍ جديدةٍ، فتمعنت عني بدلع، وقالت:

ـ تؤ تؤ.. مش هنعمل حاجة إلا لما تحكيلي عنك الأول.

قلت:

ـ أنا مبستمتعش في حياتي بحاجة أد الحكي.. ممكن بستمتع بحاجة تانية أكتر.. بس ده مش موضوعنا، إنتِ متأكدة إنك عايزاني أحكي لأني لو بدأت حكي مش هسكت أبدًا.

فجلست أمامي واضعة يديها أسفل ذقنها، وأعطتني الأشارة للبدأ فلثمتها بسرعة فوق شفتيها، وسألتها:

ـ عايزاني أحكي عن إيه؟

ـ إحكيلي عن فتى الريش.

فبدأت باستكمال حكايتي.

***

بدأت حكايتي بنشر الغلاف، كأن الغلاف كان عصا سحرية قلبت حياتي رأسًا على عقب، بعد أن كنت منسيًا لا يهتم أحدٌ بكتاباتي التف البشر من حولي، قراء وروائيون وشعراء ونقاد.. أصبحت منشوراتي بعد يومين رائجة حتى لو كنت أكتب هراءً محضًا، لم أحزن من الماضي على نصوصي القيّمة التي لم تحصل أبدًا على أي تفاعل، وقررت الاستمتاع باللحظة، وبعد أن كان صندوق رسائلي صحراءً جدبة صار وقتها جنة.. لقد عانيت من الوحدة طوال حياتي.. تنازلت أحيانًا من أجل ألا أظل وحيدًا، ثم عاندت ولساني اتخذ من كلمة "أنا ضد الجميع" شعارًا ومبدأً، وصمدت حتى ظننت أن حياتي لن تزدهر أبدًا وصولًا لصندوق الرسائل الذي أصبح ممتلئًا عن آخره وقلبي سعيد.

أعلنت عن دار النشر فزادني الأمر شهرة على الرغم من أن دار النشر كانت مغمورة نسبيًا، ازدادت جرأتي مع الوقت، وبدأت في وضع صورٍ شخصية لنفسي على الفيسبوك الخاص بي.. حصلت على الفتيات والصحبة، وكنت سعيدًا بحق، أعجبت بفتاةٍ، وأعجبت بي؛ فقررنا بدء علاقةٍ بيننا.. ساندتني قبل صدور الرواية وأثناء صدورها في معرض الكتاب وبعدها.. اهتمت بشكلي ولبسي وطريقة كلامي، وجعلت مني شخصًا آخر، أحببتها بحق كحبي لفتى الريش، وكتبت لها إهداءً خاصًا في الصفحة الأولى.

عملت في المعرض يومًا؛ لأكون بجانب (فتى الريش).. شاهدت حماس القراء وكل من أراد اقتنائها.. أخذتُ مئات الصور الشخصية مع كل قارئ جاء من أجلي، وعندما ظننت أن الحياة قد وصلت لأقصى منحنى السعادة وجدت مستوىً مختلفًا وأعلى.

انتهى المعرض، وانتهت الطبعة الأولى من (فتى الريش)، ووصل لي أراء مختلفة وعديدة ما بين معجبين ومهوسين والقليل من الناقدين.. صار اسمي يتردد عبر الفيسبوك بثبات حتى وصل اسمي لخارج مصر، وأصبح بعض المعجبين العرب، زادت مقابلاتي، وطاولتي التي ظننت أنها ستبقى فارغة للأبد صارت تضم اثنين وثلاثة في آن واحد، ثم بعد مرور وقتٍ بسيطٍ استوقفتني الفتيات لتسألني بإعجاب "مش إنت (كريم) كاتب (فتى الريش)"، فأتلعثم وأنظر لمرافقي لأتأكد إن كان هذا حقيقيًا، فتؤكد لي ابتسامته بأن الموقف يحدث لي بالفعل؛ فأفتخر بنفسي، وأجب عن كل الأسئلة بثقة وسعادة.

في لحظةٍ ما.. توقع جميع من كانوا حولي والقراء والمعجبون بأن عملي القادم سيكون تاريخيًا، وصداه سيتردد عبر العالم، وأنهم جميعًا يفتخرون بي.

حتى جاءت اللحظة التي بدأت بها في السقوط.

بالطبع كنت أتوقع سقوطًا، ولكنني لم أتوقع بأن يحدث بهذه القوة.

بدأ الأمر بعدم قدرتي على الكتابة لشهور.. خفت نجمي، صرت حانقًا أثور لأتفه الأسباب، انقطاع الكتابة كان كالجحيم بالنسبة لي فأنا لا أملك موهبةً أخرى. صرت غليظًا قاسيًا لا أهتم باختيار ألفاظي مع القريب أو الغريب، لم يتفهم الناس سبب تحول طباعي المباغت، ومع الوقت بدأوا في الانفضاض من حولي.

تركتني حبيبتي، ورحل الأصدقاء والمعارف وتركوني أواجه عجزي وحيدًا، لم أجد طريقة تعيد إليَّ سحري المفقود رغمًا عن امتلاكي للأفكار.. عادت الأيام ثقيلة فوق قلبي، وكفَّ لساني عن الكلام، وظل الزمن يركض، ولم أقدر على اللحاق به، وعندما بدأ قلمي يطاوع رغبتي مجددًا كان الأوان قد فات.

استفقت وأنا جالس فوق حطام حياتي.. ربما كنت فظًا، لكن قلبي لم يكن غليظًا، وحاولت أن أتواجد بما يكفي ومعهم، ولكن في النهاية رحلوا.

حاولت إعادة ترميم ما هُدِم.. عدت للتواجد بشكلٍ أكبر أمامهم، وانتهجت أسلوبي السابق، ولكن فشلت هذه المرة، نوَّهت عن أن الجزء التاني من (فتى الريش) سيصدر قريبًا رغم أنني لم أكتب به حرفًا، تفاعل الناس مع المنشور ولكن بشكلٍ مختلفٍ.. لقد عدت للظهور والعودة للطريق بعد عامٍ كاملٍ، القراء والمعجبون والأصدقاء التفوا حول روائيٍّ آخر، صارت لهجة حديثهم معي وكأنني بطلٌ سابقٌ لا يملك إلا زيه القديم، ولم يعد يملك من القوة مثل أيامه الأُولى، وكانت هذه نقطةً فارقةً في حياتي.

الأيام كانت صعبة، وشعرت بأن العالم قد تحول لوحشٍ مفترسٍ أطبق كفيه فوق قلبي، وحدتي أعادت إليّ أفكاري الشريرة عن أنني فاشل وعديم الموهبة، وكنت متأكدًا من أن أفكاري ستطور من نفسها، وستجد شيئًا أصعب، حاولت اللجوء لحبيبتي السابقة ولأصدقائي القدامى، ولم أجد من يساندني، ويستمع لي بل بالعكس لجوئي جعل أفكاري أكثر شرًا وسوادًا.

في البداية شعرت بأن عقلي يعطيني هدنة، وارتاح لفكرة أنني أملك الموهبة، ثم أدركت متأخرًا أنها محاولة لدس السم في العسل. صارت مشكلتي ليست في كوني أملك الموهبة أم لا.. بل في أنني صرت نجمًا محترقًا، قناع بطلٍ اختفى شكله، وصار بلا ملامح.

لم أستسغْ الفكرة، ولكن صارت ميولي غريبة، أبكي عند مشاهدة لاعبي الكرة السابقين المتحدثين بحسرة عن مجدهم السابق وممثلي الأفلام كبار السن بعد أن رحل جماهم المعروفين به سابقًا، وجعي لم يأتِ من المواضيع التي تحدثوا عنها خلال البرامج بل من نبرة الصوت نفسها، وبعد مرور الوقت فهمت لماذا تبدلت ميولي؟ وهو ببساطة لأنني على الرغم من شبابي صرت مثلهم.. كما أراد أن يقنعني عقلي.

لا أحد يعلم كم هو مؤذٍ شعور أن تكون مهاجمًا سابقًا للأهلي على سبيل المثال! الجماهير تهتم بمحرزي الأهداف، ومهما كان مستواك سواء كنت مهاجمًا سيئًا أو كنت في براعة الظاهرة ستسجل الأهداف مع النادي الأهلي، فماذا لو كان هدفك الوحيد الذي سجلته كان في كأس العالم للأندية.

بنفس الصدفة التي جعلتني أشاهد برنامج المواهب شاهدت برنامجًا كرويًّا.. يستضيف فيه المذيع أحد اللاعبين السابقين للأهلي الذي اعتزل منذ وقتٍ قريب. كان مهاجمًا أقل من العادي بقليل، ولكنه كان مجتهدًا.. كان اللقاء يمشي بشكلٍ جيدٍ قبل أن يسأله بخبث

ـ إحكيلي عن فترتك في الأهلي.

قال اللاعب الكلام التقليدي المعتاد عن أنه من بيتٍ يشجع الأهلي وكل هذا الهراء.. قبل أن تتغير نبرته لحزنٍ دفينٍ وأعينٍ دامعةٍ كأن السؤال قد فتح جرحًا قاوم طويلًا من أجل تضميده، تذكر أيامه مع الأهلى، وتخيل نفسه من صوت الجماهير أنه في لحظةٍ ما كان عظيمًا.. هتفت الجماهير بلقبه مع كل هدفٍ يسجله، وحكى عن كواليس هدفه في كأس العالم للأندية بألف طريقة، وأسلوب وأنه كان في قمةِ مجده عندها.. ثم شرب بعض الماء، وقال بصوتٍ مهزومٍ كان هذا قبل أن أرحل عن الأهلي، وألعب في أحد نوادي الدرجة الثانية، وبكى، ثم

بكيت معه؛ لأنني الآن أعرف شعور أن تكون نجمًا سابقًا خفت ضوؤه لكوني صرت في نفس مكانه.

فكما قلت.. لا أحد يعرف شعور أن تكون مهاجمًا سابقًا للأهلي.. أو ممثلًا لأحد سلاسل الأفلام الذائع صيتها وقت صدورها، ثم تم نسيانك ونسيان سلسلة أفلامك، وعشت ما تبقى لك من عمرٍ وحيدًا تعيش على ذكريات شهرتك السابقة، ستحكي لأحفادك بأنك كنت يومًا ما رائعًا تتهافت عليك الفتيات من جميع أنحاء مصر؛ لكي يأخذوا توقيعك فقط.. ستصف لهم كيف كان يقفون أمامك في طابورٍ طويلٍ ملتفٍ حول نفسه كالثعبان.. ستسرد عليهم قصة ممثلة الإغراء الجميلة التي حملتها بين ذراعيك وهي شبه عارية فقط ترتدي مايوهًا قصيرًا، وكيف كان لحمها الأبيض المبلول تداعبه يداك بعد أن أنقذتها من الغرق في سلسلة أفلامك؟ ستريهم العقود والغلاف الأول لأول فيلمٍ في السلسلة، ثم ستعيد حكاية القصة للمرة المليون، ثم سيملُّوك.. سيكرهون حكاياتك، وسيهربون منك، وسيتجنبون لقاءك.. لن يفهموا أبدًا كيف يمكن للشهرة أن تقتل صاحبها. لن يروا حكاياتك من منظورك أنت، ولن يشعروا أبدًا بمدى اشتياقك لتلك الأيام التي كانت رائعة فقط لكونها كانت أيامًا سعيدةً بعيدًا عن أنها صارت الآن بعد خفوت نجمك كالجحيم، ولكن ستظل أيامًا جيدة.

وقبل أن ترحل سيغمرك الندم على الأشياء التي لم تقوَ على فعلها.. ستندم على قبولك لعرضٍ ما؛ لأنه كان السبب في انحسار موج شهرتك.. وعلى أنك لم تتذوق الوجبة الوحيدة التي اشتهيتها بعدد أنفاسك، ستعرف أنها أيامك الأخيرة، فتبدأ في تلميع جوائزك القليلة وتجهيز بدلتك التي حضرت بها أول حفلٍ لك.. ستحاول أن تجد شخصًا تتحدث معه؛ لإخراج كل القصص

الموجودة بجوار قلبك، لأنها لو لم تخرج فكأنها لم تحدث أبدًا، ستحكي لصبي المكوجي الذي سيستمع لك رغبةً في بعض البقشيش.. سينصت لك بواب العمارة أثناء شربه للنرجيلة؛ لأنه لا يجد شيئًا أفضل ليفعله، سيهرب منك أبناؤك وأحفادهم شفقةً من بعضهم، وحنقًا من البعض الآخر، وفي النهاية لن تجد أذنًا لتسمعك إلا أذنك.. ولن تجد إلا الصمت التام فتمرض روحك، وترقد في الفراش تردد بخفوت شعار البطل الخارق الذي عشته في سلسلة أفلامك، وترحل في حزن ووحدة.

لا أحد يعلم ما هو شعور أن تكون مهاجمًا سابقًا للأهلي.. أو ممثل لأحد سلاسل الأفلام التي ذاع صيتها وقت صدورها.. أو مغنيًا أدى أغنيةً وحيدةً، ثم اختفى.

ستذاع الأغنية في محطات الراديو والتلفاز، وستروق للجمهور بشدة.. ستظن أنها أراء ستدوم ليوم أو اثنين بأقصى تقدير، ولكن ترى أنك بدأت تصنع حدثًا مثيرًا.. فصارت أغنيتك هي الأشهر في محافظتك.. ثم في المحافظات المحيطة ثم في مصر كلها.

ثم يصبح صوتك في المقاهي وجميع أنواع السيارات والنوادي والأفراح والتلفاز والراديو حتى يبدأ الناس في غنائها بنفسهم في حفلات السمر والرحلات، بعد شهور يأتي مدير أعمالك الذى لم يكن مؤمنًا بك ليخبرك بأن صدى الأغنية وصل للوطن العربي كله.. وأنه يجب علينا أن نطرق على الحديد وهو ساخن، وسيعطيك عقدًا لفيلمٍ أول، ستظهر بدورٍ لا بأس به، وستؤدي الأغنية في مشهدٍ كامل.. سيستمر الصدى لشهور أكثر.. لسنة ثم يبدأ الصدى في الخفوت بعد ظهورك في كافة البرامج وإجابة نفس الأسئلة وغناء نفس الأغنية لألف مرة، سيمل الناس، وينصرفون لأغنيةٍ أخرى لمغنيٍ شاب آخر،

ستغني من جديد أغنيةٍ مختلفة، ولكنها لن تحقق نفس الصدى أبدًا، سيطلب منك المعجبون أن تغني لهم نفس الأغنية القديمة، وكأنك مجرد أداة تسجيل، وستذعن لرغباتهم، وستغنيها بمئة لحن وطريقة مختلفة، لكي تحتفظ بهم، ولكن في النهاية ستفشل، ستنقب عن عملٍ جديد بعد أن كانت العقود تُلْقَى تحت قدميك.. ستظن أنه يمكنك الالتحاق بالتمثيل، وسترضى بسيناريو فاشل أنت فيه البطل مع ممثلة مثيرة بشدة وممثلين مساعدين أقرب منهم لتجار المخدرات، يبدأ العمل في الفيلم بدون حماس.

سيناريو فاشل.. ممثلون أغبياء.. إنتاج صفر.. لا حماس.. تغني ولكن لا رغبة.. ستشعر بغصة في حلقك أثناء الغناء، وستود لو بكيت.. بمجرد انتهاء المشهد ينصرف عنك الجميع.. ستذهب الممثلة ليضاجعها المخرج لأن هذا دورها من الأساس.. سيجتمع البقية لتدخين الحشيش، ولن تجد مكانًا لك بعد أن تصارعوا على أن يكونوا حولك، وفي النهاية سيفشل الفيلم في عرضه الأول؛ لأن الجمهور لم يأت منه إلا القليل.. والحاضرون هم المخرج والممثلة وأنت وبعض الشباب الذين جاءوا من أجل الإشاعة التي تقول بأن صدر الممثلة قد ظهر بالكامل في مشهدِ استحمامٍ مثير. ستتابع الفيلم بأعينٍ حزينة، لا تعلم كيف يمكنك الهرب. سترى كاميرا المخرج مسلطة فقط على الممثلة رغم أنك أنت البطل.. حتى أثناء غنائك لن تظهر ولو للقطة واحدة؛ لأنها ترقص ببدلةٍ خليعةٍ، تتمنى أن يأتيك الموت ألف مرة.. ستسخر قائلًا بأن هذا الفيلم لنْ يصلح حتى لغسيل الأموال.. سيظلوا يدعونك بلقب نجم بعد انتهاء الفيلم.. سيصرُّون على قول اللقب بسخرية دفينة قبل أن تعتزل العالم لِيتذكروك بعدها بعشرة سنوات ليسخروا منك على الهواء تحت مسمى استعادة الذكريات، وستغني أغنيتك اللعينة للمرة الأخيرة، ثم ستموت في غير سلام.

لا أحد يعلم ما هو شعور أن تكون مهاجمًا سابقًا للأهلي.. أو ممثلًا لأحد سلاسل الأفلام التي ذاع صيتها وقت صدورها.. أو مغنيًا أدى أغنيةً وحيدة، ثم اختفى.. أو روائيًا بروايةٍ وحيدةٍ ظن أنه قد يحتل العالم بها، وأنه سيصبح نبيًّا جديدًا قبل أن يندثر.

***

مر الأسبوع كالنسمة.. تغيرت ملامح الوجه السعيدة إلى التائهة.. تبدو كأنه قد تم خداعها، عانقتها قبل الرحيل متشبثًا بها ومتعلقًا بها كالأطفالِ، ودعتني بقبلة على الرأس، وولت هاربة قبل أن تسألني عن موعدنا القادم، فتبخر شعور الرضا بعد اختفاء ريحها.

اختفت لأيام ولم أستطع الوصول لها.. أرسلت لها رسائل لا نهائية وحذفتها.. انتظرت ظهور رسالتها؛ لتخبرني بأنني مجنون لكي أرسل كل هذا الكم من الكلمات المحذوفة فأرتاحُ ولكنها لم تأتِ قط، ظل صندوق رسائلها فارغًا كحياتي بعد اختفائها قبل أن أجدها فجأة أمام باب منزلي، حاولت إبداء غضبي، ولكن لم يصدر عن ملامحي إلا الحزن.. حدقت بي لدقيقة، ثم قالت:

ـ متصلتش بيا ليه؟

أجبتها حانقًا:

ـ عشان أنا مبتصلش بحد مش عايزني.

فأزاحتني عن الطريق، وخلعت حقيبتها، ثم جلست، فأغلقت الباب، ولحقت بها، أعدّت لنا كوبين من الشاي على نيران تعادل نيران قلبي، انتظرت تفسيرًا منها أو أن تدافع عن نفسها إلا أنها جلست وكأنها كانت هنا بالأمس.. لم أسألها وهي لم تجب، أقسمت ألا أقربها مجددًا؛ لأنني أكره المنتصف.. هي لم تقلها قط،

ولم تمنعني عن قول الكلمة اللعينة والحروف النجسة.. لا أعرف هل أنا ملك سمائها أم شخصٌ من العامة؟ لن أقربها قط، ولن أسألها، ولن أنطقها.

قالت لي بعد عامٍ من الصمت:

ـ أنا جيت أسمع بقيت حكاية فتى الريش.

هنا لم أستطع الهرب، تصاعدت رغبتي في الحكي، وطغت فوق شعوري نحوها، هل يمكن كوني أحب السرد أكثر مما أحبها؟.

قرأت السؤال في عيني بأعينٍ هادئةٍ، ثم أخذتني نحو الفراش؛ لتخلع ملابسها وملابسي، وتعوضني عن جفاء اختفائها في الأيام السابقة، الإحساس المسيطر عليَّ عندها أنها كانت محتارة بين الأمر ونقيضه.. حساسيتي المفرطة أكدت أن هناك خطْب ما بها، وأنها في موضع الاختيار بين ما أظن أنه البقاء معي أو فراقي، لكنها في حالة الاستعداد الآن.. ربما تنتظر لأن أنتهي من حكاياتي؛ لتعرف قرارها، ولما وجدتني صامتًا أهز رأسي من كثرة التفكير وضعت رأسها فوق صدري، وبدأت في استجدائي لأكمل الحكي، خشيت من انتهائي بعد نفاذ حكايتي، فالنهاية قد اقتربت أكاد أشعر بها، فربتت فوق بطني فهدأت وانطلق لساني محررًا ما تبقى من الحكاية.. حكاية فتى الريش.

اختلط النهار والليل، وصار الزمن خطًا مستقيمًا لا أول له من آخر، ذاب اسمي مع حبري.. انقلب عقلي على نفسه، فصرت أقاتل أعداءًا وهميين يشبهونني كلهم، الظلام كان رفيقي الوحيد لكونه أخذ مكانًا عميقًا بداخلي أكثر مما يوجد في غرفتي، تذكرت كل انتكاسة مررت بها، وظللت ألوكها على مهلٍ، ظننت أنني سأظل صامدًا لفترة طويلة قبل أن تنهار قدمي من تحتي، وتملكني كل شيطانٍ صنعه عقلي.

بحثت عن مخرج.. لم يسعفني وصف مشاعري بشكلٍ مجرد، كانت لحظتي الفارقة بين الاستمرار في أخذ نهج الوصف الدقيق البارد مثل ما حدث في فتى الريش أم التطور والبدء في أخذ طريق الارتقاء.. رأيت فتى الريش يعاتبني على أنني اهتممت فقط بردائه الأحمر والأسود العظيم.. وشكل شعره وقناعه ووصف قوته الخارقة كأنه كان مصنوعًا من الجماد.. وقدرته الهائلة على القتال وذكائه الخارق، لقد صنعت منه سلاحًا شاملًا لا يوجد به نقطة ضعف، ولم أتحدث ولو في مشهد عن مشاعره، وهل بالفعل يرغب بالقتال والحرب أم أنه خلق من أجل السلام.

لم أدرِ عندها هل حجتي ستكون مقبولة بالنسبة له أم لا؟ فكل ما أردته عندما أحضرته لهذا العالم أن يكون عكس ما كنته أنا، لم أسمح بأن يكون عاطفيًا حساسًا مثلي ليكمل في طريقه نحو إنقاذ العالم، تفهم حجتي على عكس ما توقعت، ووجدته يعانقني، ويعطيني القلم لكي أبدأ طريقي الجديد وفي عتمة الغرفة وضعت القلم، وتركت العنان له؛ فوجدته يكتب.

سوداوي، متجهم، حزين، مأساوي، متشائم، حائر، مائل للهروب، مصاب بالأرق، سُقط سهوًا من ذاكرة العالم، لا أملكُ كتفًا أستندُ عليه دون مقابل، ألواني حزينة، عالمي واسع وأنا ضئيل، لا أرى قمرًا في سماء كوكبي، ولا كوكبًا في فضاء مجرتي، ولا مجرةً في فراغ كوني، رحلت من كانت تعانقني قبل أن أنام، لا أجد من يربت فوق ظهري، ولا من يبتسم لي في منتصف الطريق، ولا مواسيًا عند جلوسي وحيدًا أبكي تحت أعمدة الإضاءة.

مذعور، متمرد، مرهق من الحرب، مُتعب من السلام، لا أجد نفسي إلا في المنتصف، لا لحقتُ بالمحلّقين نحو السماء، ولا صاحبتُ القاطنين على الأرض، معلقٌ أنا بقيودٍ لسرقة لم أفعلها، وجريمة أخرى يفعلها الجميع تسمى الحياة،

بائس، واهن، لا أرى ما يعيد إليَّ شغفي، لا أنظر إلا وأجد العتمة، أجلس في الظلام مراقبًا من هم في النور، أمد يدي لألمسهم فيحرقني الضوء فأُقَبِّل الظلام.

غريب، ساخط، أعيش على ذكرى لبطلٍ كنتُه أنا في الماضي، أعانق قناعي المحطم ومعطفي القديم غير قادر على إعادة أمجادهم مرة أخرى، يعاتباني من كثرة ما يغطيهما من التراب، أواسيهما بكوني معهم يغطيني الصدأ، لنعلو معًا أو نسقط معًا دون أن نتفارق، صاخب، ساخر، متلعثم، لا أجد ما يميزني إلا صوتي العالي، الذي لم يبهر حبيبتي عندما صرخت بِحُبِها، منبوذ، مشتت، لا أجد من يقرأ كتابتي، لا أسمع من يهتف باسمي، أقاتل أشياءً لا يراها سواي، أحاول الاندماج مع الأماكن المهجورة، صرتُ مسرحًا، صرتُ مسجدًا، صرتُ طريقًا للورد كي لا أكون إنسانًا مهجورًا، حاولت نشر رسالتي في عالمٍ يعيش في الفوضى وعلى وشك الانهيار فلم تكن ذا قيمة، كسفينة نوح من دون فيضان، فقررت أن أحطم السفينة، وأصير أنا الفيضان، أنا الفيضان، وأنا قادمٌ لا محالة.

فانفجر القلم، وظهر لي (سحاب) من منتصف الانفجار ليقول لي كمقدمي البرامج بابتسامة واسعة:

ـ مبروك.. إنت دلوقتي مشروعي الجديد.

***

الحياة كانت مجموعة من الاختيارات، وأنا لم أختر أي اختيار صحيح.

بعد ظهور (سحاب) كنت ما بين اختيار عرضه الذي يعدني بالمجد أو اختيار فتى الريش الذى أراني طريقًا جديدًا، (سحاب) عندها بدا مغريًا بوعوده وكلامه المعسول عن العمل الأعظم وعن إعادتي لمنصة الشهرة عن طريق

الخيال، وفتى الريش يريد مني أن أخلع عني رداء الحرب، واعتزال العالم للكتابة عن الحب والبحر والدراما؛ فيكفيه الدماء المسفوكة بيديه.

حضور (سحاب) في هذه اللحظة بعد تملك اليأس مني، وشعور الهزيمة الذي كاد يقتلني جعلني أختار الاختيار السهل، ما دمت أبرع في كتابة الخيال وأمامي الفرصة الحقيقية الوحيدة والتي يمكن أن تكون الأخيرة وخصوصًا أنني ككاتبٍ لا أملك لغةً مميزةً، واللغة في الوسط الكتابي هي عملة الجوائز فلمَ لا أستغله.. وافقت على عرض (سحاب) فاختفى فتى الريش من أمامي للأبد، وأحتل (سحاب) عقلي، وصار يلازمني طول الوقت.. فتح لي أفاقًا مختلفة ومبهرة، أعطاني الفكرة، وساعدني حتى وصلنا لكلمة النهاية، كان منبهرًا بأسلوبي وبقدرتي على وصف أدق التفاصيل بشكل ممتع وسلس، وعاملني وكأنني المختار الجديد، وأخذ بيدي خطوةً تلو الأخرى حتى صارت (سماء الغزلان) واقعًا بين يدينا، التحدي الذي عرضه هو أن نرسل بسماء الغزلان لنفس دار النشر الناشرة لفتى الريش.. خشيت من الفشل مجددًا ولكن بمجرد صدورها إلى الناس اختلفت حياتي تمامًا وإلى الأبد.

* * *

القصة لم تنتهِ بعد، ولكن (مريم) قد انتهت مني.

* * *

بعد أن ظننت بأنني انتهيت من قصتي مع فتى الريش، رحلت (مريم) إلى الأبد، حاولت إشعال الرغبة في جسدي للمرة الأخيرة، ولكنها لم تفلح.. أنا لم أعد مثارًا يا عزيزتي أنا فقط حزين.

كنت أعرف أنها سترحل.. ورحيلها بدأ بمنشور ساخر سخيف كتبت فيه:

أنا كنت عايزة أتعرف على كاتب عشان يكتب عني، إيه اللي دخلني في الحوارات دية كلها.

شعرت بصدعٍ يمتد من القلب إلى الأذن.. عدت لصمتي واختفائي وحديثي مع نفسي بصوتٍ عالٍ في منتصف الطريق، حاولت أن تراسلني بعدها وكأننا مجرد أصدقاء فلم أرد أبدًا.

الكوابيس لم تفارق نومي منذ افتراقنا، رأيتها تسخر من كل تفصيلة وكل حكاية.. وتلعثمي ونحولي وعيني اليسرى ذات النصف جفن، أكاد أقسم بأنها منذ البداية لم تشعر بأي مشاعرٍ نحوي إلا أنها وجدتني مثيرًا غامضًا من البداية، وأرادت أن تكون من ضمن هذا الغموض، وعندما صرت واضحًا ومقروءًا أمامها شعرت بأن مهمتها قد وصلت لآخرها، وأنني لم أعد ممتعًا بما يكفي، فاستنفذت آخر حكاياتي، ورحلت.

لكنها لم تكن آخر حكاياتي، هي حتى لم تقترب من المنتصف.

هنا توقفت للحظة، وشعرت بأن هذه لحظةٍ فارقةٍ أخرى من الصعب جدًا الحصول على مثلها فيما بعد.

كان مفترق الطرق أمامي يؤدي إما للحزن والعودة للبكاء على الأطلال أو أن آخذ موقفًا وأنهي كل هذا للأبد.

شعرت بأنني في منتصف أرضٍ لا حدود لها، وكأنني كنت في حربٍ ضد الجميع وحدي، وأن المعركة ستدوم إلى أن يرث الله الأرض، يجب عليَّ أخذ قرارٍ والآن.. وقد كان.

لا شيء يعادل متعة الاستسلام بعد صراعٍ طويل، ولكني قد استسلمت بما يكفي ولم أحصل إلا على الألم.

استسلمت بعد حفلةِ توقيعي الأولى.. وبعد رحيل (نوره) وبعد اختياري لعرض (سحاب) وبعد العيش في ظل (سماء الغزلان) حتى هذه اللحظة.. وقلبي لن يستطيع احتمال استسلامٍ آخر، لن أحبس نفسي ككل مرةٍ أهزم فيها، ربما قد هزمتني (مريم)، ولكنها ستكون الهزيمة الأخيرة، والبداية لتحطيم القيود التي منعتني من التحليق نحو السماء، وأبقتني مقيدًا بالأرض كل هذه المدة.

***

معركة سحاب

حلمت بأنني أشاهد حقلي وكوخي يحترقان بلهيبٍ أسود.

عودتي لم تكن ككل مرة ففي هذه المرة لم أكن أنا المتحكم.. لم يذهب (كريم) للنوم بل أحضرني بعقلٍ صافٍ وواعٍ، كانت هذه المرة الأولى التي يفعل فيها ذلك.

لم أفهم ما الذي حدث، ولم أقدر على استرجاع الأحداث إلا عندما سمح لي.

كان يبدو كطفلٍ غاضبٍ، بدأ مؤخرًا في إحكام السيطرة على حياته، رأيت سعادته مع (مريم)، وسمعت أفكاره أثناء تواجدها في حياته.. شعرت بمشاعره الإيجابية كلها حتى بدأت أشاهد أشياءً منهارة بداخله، ففهمت أنها رحلت بعد أسبوع سيء تغيرت فيه تمامًا عن عهدها، فأثرت على قراراته واختياراته، أي أنني الآن أمام شخصٍ آخر، قراري بالعطلة كان أغبى قرار أخذته في مسيرتي.. قرار قد يؤدي إلى نهايتي أو إلى الإذعان والقبول بأي شيء قد يقوله، وهذا معناه نهايتي أيضًا.

عقلي حاول الوصول لأي حل بسرعةٍ جهنميةٍ، ولكن كنت مكشوفًا أمامه، فلم أقدر على فعل شيء حتى دعاني للجلوس مبتسمًا.

تغير المشهد من جدران عقله لغرفة بسيطة تحتوي على مقعدين ومنضدة، وقف أمامي ثابتًا لا تهتز منه شعرة.. بملابسه السوداء وشعره المصفف المشوب باللون الأبيض، ظلت الابتسامة على شفتيه قبل أن يسحب مقعدًا ويجلس، فجلست بعده.

هذه كانت المرة الأولى التي أظهر فيها أمامه بشكلي الطبيعي الخاص بعالمي، تبادلنا النظرات، وشعرت أننا فوق الزمن والمادة، فلو بقينا نتبادل النظرات

سنظل هكذا للأبد، حاولت أن أراوغه؛ لأتمكن من الوصول لحل لأجل الخروج من هذا المأزق، ولكنه تعامل معي وكأنه يتعامل مع فأر مذعور يعرف أنه ميت لا محالة فهدأت، وانتظرت كلمته الأولى.

قال لي بصوتٍ رخيمٍ:

الآن.. يا شيطاني العزيز.. يا ملهم قلمي وإله (سماء الغزلان)، قد حان الوقت لآخذ قرارًا صعبًا.. أتمنى ألا تشعر بالضيق؛ لأنني أتحدث بهذا الطريقة وليست بالعامية كما اعتدنا التحدث سابقًا، قد فاتك الكثير أثناء عطلتك، واضطررت لوضع خطة جديدة لعالمي الجديد، أعطني سببًا واحدًا لكي أجعلك فردًا في عالمي القادم؟

ولك حرية الحديث، ولن أقاطعك.. ولكن تذكر كلمةً واحدة قد تبقيك وأخرى قد تمحيك.

فأبدأ.

تمالكت نفسي أمامه، وبدأت في انتقاء كلماتي ليس خوفًا منه بل تقديرًا للموقف، بدأت في الحديث دون الاهتمام لنظراته وابتسامته.

عمري ألفُ عامٍ أرضي لا أهتم بعمري في عالمي، أو بالأحرى يمكنني قول أنني لم أهتم بعالمي الأصلي منذ مولدي.. فقد فضلت عوالم كتاباتي أكثر من أرض الواقع.. عشت فيها، وغصت، وانفعلت، ووقعت في الحب، وصرت بطلًا أسطوريًا يهتف الكون باسمي أثناء واقعي المزري والمرير، قضيت أيامي أبحث عن مخرجٍ يأتيني من السماء، قاومت المرض والضعف والإهانة والاحتلال، ونجوت من أشجار (مونتارو) أملًا في تحقيق حلمي بالخروج والهرب من الشقاء حتى جاءتني الفرصة لكي أكون مساعدك، وأحقق عبرك

حلمي الوحيد في تحقيق الخيال وجعله الدين الجديد، لم أهتم بالمنظمة ولا برئيسي ولا بعالمي منذ اللحظة الأولى التي ظهرت لك بها.

انظر من حولك.. أبناء جنسك يعبدون الخيال من دون قصد.. يدمنون المخدرات والروايات والأفلام وأي شيء يجعلهم يشعرون بأنهم نجحوا في الهروب، يعبدون آلهة لم يرونها قط، يقدسون الأماكن والشوارع والتماثيل؛ لأنها فقط تشعرهم بأن هناك مكان آخر سيهربون إليه من جحيم واقعهم، رأيت الناس يعتنقون الخيال، ويتخلون عن معتقداتهم.

شاهدت فتى يرقص في المسجد؛ لأن الخيال هيأ له وضعًا أفضل!

الجميع تخلوا عن معتقداتهم ودينهم من أجل الخيال.. ثم تأتي أنت لترفض الدين القادم من أجل بعض الدراما.. تلقي بذهب الشهرة من أجل تراب المجد كما تظن، سحقًا لك.

طيلة الوقت لم أضع علاقتنا في خانة ثابتة، كنت عدوي وصديقي وزميل قلمي.. وفي بعض الأحيان كنت ابني الوحيد.. لا تلق بالًا بشكلي الشاب فأنا أملك من العمر ما لا يمكنك أن تحصيه، شاهدتك تسعد بنجاح (سماء الغزلان) وتصاعد شهرتك أضعاف عن ما حصلت عليه من (فتى الريش)، سعدت لسعادتك عند لقائك بنوره وحماسك الشديد لها في بداية الأمر، شعرت بالحب المكنون بداخلك نحوها، وأصبت به، وأحببتها أنا الآخر..انهرت لرؤيتك مهزومًا وحيدًا بعد أن تركتك من دون أي سبب، حاولت محو ذكراها من عقلك، ولكنك أبيت، وقاومتني كأنني سآخذ حياتك، منذ اللحظة الأولى كنت فخورًا بك كابنٍ لي.. ابن موهوب لم ولن أحصل عليه قط، ربما أظهرت لك الشر والكره، ولكن بداخلي كان الوضع مختلفًا..

احترامي تزايد لك مع الوقت لتمرّدك على الحياة الرغدة مقابل شيء قد ينهي مسيرتك للأبد.

وأيضًا رأيتك تنهار أمامي مليون مرة، تحمّلت عاطفيتك المفرطة تجاه البشر والأشياء، وعشت نوبات بكائك واكتئابك وأحلامك السخيفة.. هل تظن أنني تقبلت شيئًا مثل أن تحضر حفلة توقيعك الأولى فتاة تعشقك فقط لتقبلك قبل الخروج للمحاورة أمام القراء؟

أي شيءٌ لعينٌ هذا، أنا جئت لأجعل قلمك عظيمًا مشهورًا وأنت تحلم بقبلة فتاة!

تعايشت مع تذمرك وحساسيتك وشفقتك تجاه العالم وكرهك لنفسك، أخبرني كيف يمكنني أن أحب شخصًا عشق كل تفاصيل العالم وكره نفسه وتفاصيله الخاصة؟!

أنت طفلٌ مدللٌ وسخيف، كل ما تفعله هو البكاء والتذمر بأن الحياة لم تعطِك فرصة، وأن العالم يكرهك ويقف ضدك على الرغم من أن الحياة أعطتك الفرصة الوحيدة الحالم بها كل شخصٍ أراد أن يكتب نصًا.. شعرًا كان أو نثرًا أو رواية، هل تعلم كم شخص فيهم يرجو السماء أن ترسل لهم فرصةٌ مثلي؟ لو بقيت ما تبقى لك من عمر تعد الأرقام بدايةً من الرقم واحد فلن تصل أبدًا لعددهم، وستموت من شدة جفاف حلقك الناتج لكثرة العدّ.

انظر حولك.. هناك مليون روائي آخر غيرك يظن أنه المختار.. يظن أنه قد يصبح مثلك مشهورًا، كلهم يودُّون لو يكتبون النص المثالي الذي سينقلهم لطبع بصمتهم على القمر، مليون روائي تمنى لو كان هو كاتب تحفتك – تحفتنا الفنية.

حسنًا.. ماذا تريد؟!

تريد المال.. النساء.. نوره.. تريد بعض الجوائز؟!
سأعطيك الأفكار اللازمة لكتابةِ النص المثالي الأوحد، ستحصل على كل الجوائز التي يمكنك أن تتخيلها.. سأعطيك ما تشدو إليه، فتاة تعشقك لتقبلك قبل حفلات توقيعك.. عيناها ستظل مسلطةً فوقك فقط، ستأخذ نصيبك في حب نفسك لها لتحب تفاصيلك بشكلٍ مضاعفٍ، ستزهد المال من كثرته، وستملُّ الأضواء، وستعتلي عرش كتابة الخيال للأبد.. لماذا أنت صامت؟!
أجبني، هل سنصنع التاريخ معًا أم لا؟
تعابير وجهه لم تتغير للحظة، ظلت ابتسامته هادئة مخيفة لا أدري ما مغزاها، لا أعرف هل نجحت في إقناعه أم أنه يفكر في طريقةٍ لقتلي؟ ظل صامتًا قليلًا، ثم قال باقتضاب:
أنا لم أعد أحتاجك، ستكون هذه المرة الأخيرة لذا سأكشف لك عن سرٍ ما سيجعلك ترحل في هدوء.
الحقيقة هي أنك لم تكن شيطانًا قط، لم تكن هناك منظمة، ولم يكن هناك عالم أتيت أنت منه، أنت نسخة مطورة مني خرجت عن السيطرة.. صنعتك لأرتاح ولأستطيع القفز عبر الزمن وقتما أريد، وأيضًا من أجل تعاملك الشخصي المثير المختلف عن تعاملي، فوضاك في وقتٍ ما كانت مناسبة لجذب المزيد من العلاقات بعد أن كانت حياتي مغطاة بخيوط العنكبوت.
قلت له ساخرًا: هذا ليس صحيحًا على الأطلاق، وضحكت.
سألني
ماهو اسم عالمك؟
اااا.. اسمه اااا
ما اسم المنظمة؟

هذا سهل، اسمها..
ما اسم رئيسك؟ كيف كان يبدو مكتبه؟
ذكرى المكتب كانت واضحة ومضيئة بألوانٍ فاقعة، ولكن بعد سؤاله بدأت الألوان في الذوبان، ثم صار رماديًا، وبعدها انحسار الذكرى، وتعقّد لساني.
أخبرني لماذا أخذوك في المنظمة، ما اسم المستنقع الذي نجوت منه؟
انهارت الذكرى كأنها مبنى مدكوك، اسم الأشجار والمستنقع ذهبوا من على لساني كما اختفت ندباتي.
توقعت السؤال القادم، شعرت بالحزن لانهيار ذاكرتي أكثر من حزني على موتي، أنا لا أصدقه هو قادر على محوي، ولكن كيف يجرؤ على محو ذكرياتٍ حددت شكلي وتكويني وأفكاري؟
صرخت به قبل أن ينطق سؤاله الأخير
لا يمكنك فعل هذا.
تضخم صوتي، وصار شيطانيًا
سأريك الجحيم الآن.
اشتعل المكان كله في لحظة، بالمنضدة والحوائط والأرضية، الحرارة أذابت كل ما جاء في طريقها، تضاعف حجم جسدي واخترق قرناي سقف الغرف، تمزقت الملابس، ووقفت أمامه بجسدٍ مشتعل ولهيب يتساقط من بين شدقي، نفثت ناري نحوه وهو جالس أمامي، نارٌ قادرة على تحويل المحيط إلى بخار.
هجومي كان ساحقًا.. خلف أثرًا عظيمًا ودخانًا ضخمًا، توقعت أن الدخان المتطاير هو بقاياه قبل انقشاعه، ورأيته يجلس هادئًا بين اللهب والدخان، ويبتسم لي ساخرًا.
شعرت بزلزالٍ هز أعماقي، نظرت له في ثورة، وقلت:

أنا اسمي (سحاب)، وسأسقط فوقك لأمحيك الآن.

قوتي وصلت لأوجّها.. اندفعت نحوه وأطحتُ به لنسقط عبر أرضية الغرفة لِلفراغ التام.

لكمته مليون مرة بقبضةٍ حديديةٍ مشتعلةٍ.. نطحت صدره بقروني.. ركلته في بطنه وأعضائه التناسلية ركلاتٍ تقدر على تقسيم جسدٍ عاديٍ إلى نصفين.. مزقت ملابسه وصدره، وحاولت اقتلاع قلبه، ومع كل هجومٍ مني ظللنا نسقط من حالق نحو الأسفل لنتورّط أكثر في ظلامٍ حالك يكسره نور لهيبي.

وعلى الضوء الخافت لم أره يتأوه قط أو يتألم كأنني أهاجم جثة هامدة، ظللنا نسقط عبر الظلام حتى يئست من قتاله فقررت أن أراوغه، أَثَرْت بداخله ذكرى عشوائية لحفلةِ توقيعٍ ناجحة حضر له فيها الكثير من المعجبين، فدخلنا نفقًا مبهرًا أعمانا ضوؤه من شدته، واستعدنا بصرنا على منظر المعجبين وهم يصفقون له وهو جالس في ملل وعيناه تنظر إلى ما وراء الحدث، ويلتفت للباب الخلفي؛ لأنه تمنى لو عانق (نوره) خلفه قبل بداية الحفل.

تراجعت أمامه، وبدأت في إسقاط الأجساد والمقاعد.. لم نكن ضمن مجال رؤية المتواجدين؛ لأننا شيء دخيل، ولكن لا تزال الذكرى حقيقية، تعالى صوت التصفيق، وأنا أتراجع محاولًا الهرب منه.. لا يجد لساني ما ينقذني وهو قادم نحوي بهدوء وثقة كأنه الموت.

كان يعبر عبر الأجساد فيمحيها.. الألوان تذوب من خلفه، وتنهار الحوائط، وتتساقط الصور والمرايا المعلقة لتكون جزءًا من مد الظلام القادم خلفه.. تراجعت حتى لمس ظهري الحائط الأخير.. انمحت الذكرى كلما اقترب نحوي فقررت الهرب، أثرت واحدة أخرى فعبرت عبر الحائط لمكان مفتوح آخر كان يجلس فيه وحيدًا يكتب (فتى الريش)، هربت منه، وحاولت

الاختباء، ولكنه ظل قادمًا بنفس بطء الخطوات يمحي خلفه أي أثرٍ للذكرى، مع كل خطوة يخطوها يزداد يقيني بأنها النهاية، فخطرت على بالي فكرة سريعة. إذا تحتم على (سحاب) السقوط ليسقط محملًا بالبركان.

استرجعت أفضل لحظات مر بها، رتّبتهم من حيث الأقوى والأقرب لقلبه.

كلهم كانوا عن (نوره)، سأجعله يندم بشدة بعد رحيلي.

انتقلنا لمكان بدا لي أوقع من الحقيقة.

كانت الذكرى الأقرب لقلبه.. التي حافظ عليها من الخفوت، لأنه كما يصنفه أجمل يوم في حياته.. يوم اعترف ل(نوره) بحبه،

رأيته يقف لاستيعاب المشهد، فأدركت أنني أثرت فيه، عيناه فضحته وهي تشاهد ما سيحدث، وكأنه سيَحدث للمرة الأولى.

كان الوقت ليلًا، جلس فوق أحد المقاعد أمام أحد المباني التجارية في مدينتها، قام بربط حذائه، وعدل من ملابسه وهنْدمها.. كانت تكاد تصل لمنتصف الليل، فوجئ برسالة - أثناء وجوده في عمله - منها تطلب منه أن يلتقيا بعد العمل، فوافق على الفور؛ لأنها تروق له بشدة، ويحاول تمضية أي وقت فراغ معها.

فاجأته بلكمة خفيفة من الخلف، فنظر ليسب فاعلها، فوجدها هي ولكن من دون حجاب، مظهرها كان مختلفًا عن المرات السابقة فقد كانت ترتدي رداءًا فضفاض، ولا ترتدي حجاب يغطي شعرها.

كانوا الوحيدين في الشارع وقتها.. ظلت تحكي له عن نفسها وهو مستمتع، قالت له أنها دائمًا كانت تُعامل على أنها فتى وليس فتاة، أبوها وأخواتها وأصدقائها، ولمحت أنه الوحيد الذي عاملها على أنها أنثى مكتملة النضج.

استغل الشارع الجانبي والضوء الخافت، فأخّر نفسه خطوتين، ثم سألها:

نوره.. لو أنا آخر راجل على وجه الأرض دلوقتي هتعملي إيه؟
فتحت ذراعيها له، وقالت:
هحضنك.
ألقى نفسه بين ذراعيها، وقبَّلها على عنقها ورأسها.. ثم وجد نفسه يهمس لها بحبه.
كم اختلف (كريم) هذا عن (كريم) الحالي!
رأيت انتشاء الأول من الفرحة ودموع وغضب الثاني.
رأيت يقترب مني ثائرًا.
اختبأت خلف صورته وصورة (نوره) فمزقهم ليصل إليّ، قال بغضب:
كيف تجرؤ؟ كيف تجرؤ على استخدام هذه الذكرى ضدي؟
فجأة وجدته صار وحشًا مخيفًا أسود الجلد عملاق الجسد بأربعة أذرع وست عيون، أمسك بي كأنني طفلٌ رضيع، إنها النهاية.
ظل يضغط على جسدي؛ لِيسحقني.. حاولت الاستمتاع بنصري الأخير بعد أن جعلته يمسح أهم ذكرى لديه.. ذكرى ستمحو كل شيء له علاقة ب(نوره)، وهذا ما كان يقاوم من أجل ألا يحدث.
ضحكت له والدماء تخرج من أنفي وفمي.. الضغط يزيد.
قال بصوتٍ مرعبٍ:
الآن أخبرني.. من أنت؟
أنا.. أنا أأأأ
أنا لا شيء.

***

الفصل الأخير من الألم

الجو حارٌ بشدة.. لا أطيق الحر أبدًا، ولا أطيق الشمس.

أستيقظُ من الموت؛ لأفكرَ في الموت.. لأمارس الموت دون رغبة حقيقية في ممارسة شيءٍ أخر.

هناك حدثٌ عظيمٌ اليوم.

اليوم هو يوم استلامي لجائزتي الأولى في مجال الأدب لرواية (سماء الغزلان ٢)

أحدق في السقف.

لا أقوى على النهوض أو على نفض صداعي، حلمت بكابوسٍ سيءٍ ليلة أمس.. فيه كنت أقاتل كيانًا وهميًا شريرًا يبث النار كالشياطين.

لا أعرف لمَ أشعر بكل هذا الخواء، وكأنني أفتقد شخصًا ما، قلبي يرتجف ويحاول إعادة شيءٍ ما، كأن أحدهم استبدل شريانه التاجي ببعض كابلات الكهرباء أثناء نومي، ولكن لم أشغل نفسي؛ لأنه في كل الأحوال الليلة ستكون الأخيرة.. لن يصبح هناك المزيد من الألم والتعب.

تمرد جسدي عليَّ.. وقفت لأبدأ في تجهيز نفسي للحفل، ولكن عيني ورأسي يبحثان عن غرضٍ ما لا أتذكره.

هاتفي لا يكف عن الرن بالعديد من الرسائل والاتصالات، قررت أن أختار فتاة عشوائية لتحضر معي الحفل.. أضاء الهاتف، وبدأت في البحث عن المختارة، رأيت رسالةً لم يمر على وصولها دقيقتين من فتاة تدعى نوره سمير.

قررت أن أرى منشوراتها وصورها الخاصة التي بمجرد رؤيتها شعرت بأن الدماء عادت تتدفق بشكلٍ طبيعي من وإلى قلبي وأنني أحببتها على الفور.

كانت رائعة.. جسدها قُد من مرمر.. تملك وجهًا خلق لأحبه بملامحها البسيطة المزينة بالكحل وأحمر الشفاة.

وجدت نفسي أبتسم دون أن ألحظ ذلك، وأنا أتمعن النظر إلى شعرها القصير المقصوص بغير عناية، وسذاجة أفكارها المنشورة على صفحتها، رسالتها كانت بسيطة، وكانت أول رسائلها لي.

هقابلك إمتى عشان نروح الحفلة؟

للحظة شعرت بأن كل جزءٍ في حياتي موضوعٌ في مكانه الصحيح لأول مرة منذ ولدت، قلبي يعمل بشكلٍ سليم.. عقلي يفكر بهدوء واتزان حتى أن معدتي قررت أن تجوع لأول مرة منذ 986479 سنة.

تأملت الصورة والرسالة، تنهدت قبل إرسال عنوان الحفل، ولكن توقفت أصابعي في الهواء ولم أرسل.

قلت لنفسي بأنها أجمل من تقع في حبي، وأنا أعلم نهايتنا سأحبها أنا، وستكون قصة مأساوية لذلك حظًا سعيدًا لي مع الفتاة القادمة.

تجاهلت الرسالة، وبحثت بين الرسائل الأخرى ثم غيرت رأيي، وقررت الذهاب وحيدًا.

قادتني قدمي لوسط البلد.. مشيت في الشوارع أبحث عن شيءٍ مفقود.. قطعت شارع طلعت حرب بأكمله حتى وصلت لجمال عبد الناصر، ولم أجد قطعتي المفقودة قلت ربما أجدها في التحرير.. شارع شريف أو محمد فريد أو حتى ميدان الأوبرا، ولكن امتلأ قلبي بالشوارع، ولم أجد بعد ضلعي المفقود. أفتقد شخصاً ما، ملامحه لا تظهر وجسده لا أعلمه وصوته لا أسمعه.. أفتقد حبًا عوضني لأيامٍ وأسابيع.. أو ربما لبعض الثواني فقط.. أفتقد عناق امرأة

كانت لي وطنًا وعشقًا ومنزلًا، وأشتاق لحبها الذي لم يأتِ قط، قلبي يحدثني، ويخبرني أنه كان هناك حبٌ ما في حياتي، لكنه لم يكن حبًا.

أمشي متأنقًا مختالًا ببدلتي السوداء وربطة عنقي الحمراء.. شعرت أنني وسيم أليق بروائي ذاهب للتكريم، بحثت بين الوجوه عن وجهٍ مألوف ليتحدث معي عن حالي وعن وسامتي وليبارك لي، ولكنني لم أجد إلا الوجوه الغريبة.. والملامح المختلفة وتعابير الوجه المعجبة أو الساخرة أو حتى المثارة، ولم أجد بينهم أبدًا الفخور أو المحب.

حزني تجاوز كل المرات السابقة، وتشكل فوق وجهي، وأخذ مكانًا في قلبي المنتظر، أعرف أنها النهاية.. لن أقدر على العيش مع كل هذا الفقد والحزن وخصوصًا أنني أشعر بالحنين لشيءٍ لا أدري ما هو، ولكن ملموس ويؤلمني صمته وفراغه.

قلت لنفسي من دون وعي.

إذا تحتم عليَّ السقوط.. فسأكون سحابةً محملةً بالبركان.

لا أعرف هل هذه الجملة مني أم قرأتها في روايةٍ ما؟ والحقيقة أنني أشعر بأنني سمعتها من قبل، ولكن لا أذكر متى أو أين.

أجلت كل خططي وذهبت مباشرةً نحو قاعة الحفل، وقررت أن اليوم سأرتجل للمرة الأولى.. وربما الأخيرة.

***

وصلت أثناء الحفل.. أخذت بيدي إحدى فتيات الإعداد؛ لترشدني لمقعدي في الصف الأول بجانب الشخصيات المهمة، فطلبت منها خجلًا الجلوس بجانب الباب الخلفي، فوافقت على مضضٍ، وأرشدتْني للمكان، ثم طلبت مني تجهيز خطابي فتجاهلتها.

نظرت للمقعد وللباب، قلت:
مرحبًا يا صديقي، عن ماذا ستتحدث اليوم؟
عن الوحدة؟
موضوعي المفضل.
الأضواء وصوت التصفيق الحاد بالخارج يشوا بسعادة غامرة سأحصل عليها..
اليوم أنا النجم المتوج بين مجموعة من الأحجار المزيفة، ولكن عقلي لم ينشغل بالأضواء ولا بالجائزة.. كل ما انشغلت به وتعلق بصري به هو الباب الخلفي، تمنيت قدومها.. جالت فكرة غريبة في عقلي وهي أن (نوره) التي رأيت رسالتها اليوم قد تطرق الباب الآن، وتدخل لتعانقني قبل الدخول إلى المسرح، وشعرت بالراحة لمجرد التخيل كأنها كانت حبيبتي في زمنٍ آخر وأرضٍ مختلفة، ولكن ليس الآن فطردت عني الفكرة السخيفة؛ لأنني لا أذكر أنني أحببت فتاةً إلا (مريم) وربما (ولاء)، طال انتظاري، وشعرت باليأس والملل.. جاءت المُعِدَّة لتخبرني بأنه قد حان وقتي، فقلت لها باستنكار: إنني لم أسمع تقديمي، فقالت بأنه قد تم الإعلان عن دخولي وتقديمي من قبل أ/ علام نورالدين، والجميع في الخارج بانتظارك الآن، فضحكت ساخرًا.
بقيت لثوانٍ أخيرة لا أملكها.. تمنيت لو فتح الباب الموارب عن آخره لأجد (مريم) بشعرها المموج وجسدها المثير ورائحتها؛ لتغمرني بعناقٍ قبل دخولي استعجلتني المُعدَّة، فقلت:
اللعنة.. كل ما أردته هو عناقٍ أخير، والتفت نحو باب الدخول للمسرح ودخلت ليغمرني الضوء المبهر وصوت التصفيق الحاد والضحكات.

مد (علام) يده ليصافحني، فلم آخذها فحاول إخفاء إحراجه، وخرج على الفور، ثم وقفت أنا بجانب جائزتي على منصة التتويج التي تليق بملك.. أي أنها تليق بي.
أمسكت بالجائزة التي كان من المفترض أن يقدمها لي (علام)، وحدقت لها بعد هدوء التصفيق.
القاعة كانت ممتلئة عن آخرها، فتذكرت حفلة توقيع نصل الخوف.
تنحنحت، فانتبه الجميع لي.
حقيقةً أنا لم أعمل على تجهيز خطابي ليلة أمس؛ لأنني ظننت لآخر لحظة بأن الأمر كله مجرد خدعة.. لذا تقبلوا ارتجالي.
لو جاء لي شخصٌ من المستقبل ليقول لي أن الفتى الصغير العاشق لوسط البلد الآتي من ضواحي القاهرة سيفوز بجائزة قيمة كتلك الجائزة كنت سأسخر منه بشدة، والآن الفتى الصغير هنا لأول مرة فوق قمة الجبل يتحدث يحرج نفسه أمام مجموعة هائلة من عظماء الأدب.
صوت ضحكات
حسنًا يمكنني أن أنتهز الفرصة؛ لأشكر بعض الجالسين هنا لكونهم عونًا في رحلتي الطويلة والمرهقة وأشخاصٍ يُمكنني الاعتماد عليهم دائمًا.
صوت تصفيق
في الحقيقة أنا لم أستدعِ عائلتي هنا لأسباب عدة، وأتمنى أن تتقبلوا وجهة نظري بصدرٍ رحب.
العالم لم يكن إلا أثرًا جانبيًا لمرضي الدائم المسمى بالواقع.
كل شخص أو شيء وُجدَ في حياتي لم يؤثر أو يلحظ وجودي قبل كتابة (سماء الغزلان)، ومنهم كان عائلتي.

هم لم يؤمنوا بي ولو للحظة، كافحت لكي أخرج روايتي الأولى للنور، قالوا ستفشل فلا أحد يقرأ، ولو قرأوا فلن يكون لك، وفي يوم حفلة ظهور الرواية سخروا مني أمام الجميع عندما عدت للمنزل باكيًا من شدة تأثّري بالذي حدث.. قلت هم مجرد أثر جانبي لداء الواقع، هل استسلمت؟

لا.. رغم قساوة الواقع ظللت ثابتًا على موقفي.

معظم الجالسين هنا أظهروا لي جانبًا من الود المزيف.. أخبروني بابتسامة مثالية وصوتٍ حنون بأنهم سيقرأوا (نصل الخوف)؛ ليساعدوني على إخراجها للنور بالشكل الأمثل.. يا إلهي! كم كنت ساذجًا وصدقت وانتظرت لليالٍ وأيام، ومررت بفتراتٍ عصيبة أنظر فيها لهاتفي ولصندوق رسائلي أنتظر!.. لقد احترقت من شدة الانتظار، وفي النهاية ما الذي حصلت عليه منكم؟

رسائلٌ لم تأتِ، وصندوق فارغ وكلماتٍ قيلت بينكم ساخرة مني ومن اسم روايتي، كنت أظن عندها بأن الروائي والكاتب لا ينافق قط؛ لأنه يقدم شيئًا ساميًا، ولكن كما قلت كنت ساذجًا، وفي النهاية استطعت نشر الرواية وحدي دون حاجة إلى مساعدتكم، هل استسلمت من إدعاء الود والسخرية التي لم تجرؤوا حتى على قولها في وجهي؟

لا فهذا مجرد أثرٌ جانبي لن يدوم.

كيف امتلكتم الجرأة والشجاعة لتأتوا الآن وتتصنعوا الود مرة أخرى؟!

أراهن أن بعضكم الآن يشعر بالتأثر الحقيقي والصادق نحوي الآن، ولكن تعاطفكم ليس في محله؛ لأنه ليس لي.. تعاطفكم من أجل قوة جائزتي ومن أجل (سماء الغزلان)، ولكن ليس لي أبدًا.

أكاد أقسم بأن بعضكم يتحرق لكي يكون مكاني.. ويقول أن الجائزة لا تليق برواية درامية خيالية، ولكنه أتى هنا مرغمًا حتى لا يقال عليه أنه حاقد، أنا متفق

معكم بشكلٍ جزئيّ.. وددت لو حصلت على الجائزة بروايةٍ دراميةٍ عاديةٍ، ولكن لسخرية القدر حصلت الرواية التي كشفت زيفكم على الجائزة، أذكر كل شخصٍ منكم اعترض على أسلوبي ونقدي ورؤيتي الفنية بعد كتابة (نصل الخوف) و(فتى الريش)، ثم تبدل الحال بعد نجاح (سماء الغزلان).

فأسلوبي الركيك أصبح سهلًا ممتنعًا.. ونقدي المفتقد للمرونة أصبح حازمًا لا يميل مع العاطفة، ورؤيتي الفنية المفتقرة للفن صارت مدرسة جديدة للفن يجب أن تدرس، وأيضًا مشاهدي الجنسية الصريحة التي تثير الشهوة وتدعو للفجر أصبحت أدبًا إيروتيكيًا يعيد إحياء مدارس الأدب القديمة.. آه ونسيت ذكر لغتي الضعيفة التي أصبحت لغة تناسب سرعة الحدث وبناء العالم.

العالم وأنا لم نتفق أبدًا، كرهت قلبي العاطفي، ومقتّ حساسيتي المفرطة تجاه المخلوقات والأشياء، اعتقدت أنه بقلمي يمكنني تغيير العالم.. لكنها كانت مهمة مستحيلة.

قلمي لم يقدر على إيقاف الحروب أو تغيير النفس البشرية أو مواساة الوحيدين والمستضعفين، قلمي الذي وجهته كالسيف نحو قسوة العالم طعنني أنا وجعلني أدرك أن العالم لا يحتاج إلى تغيير أو إنقاذ.. بل أنا.....

قبل (سماء الغزلان) كنت مهزومًا وحيدًا.. شخصًا سيئًا أبتسم للأطفال، فيبدو عليهم الذعر ولا يبادلونني الابتسام، أتحدث مع الأشخاص بحميمية ولا يلقون لي بالًا، لم يختارني الرفاق للعب الكرة، وهداياي لم تكن ذات شأن، لم يبادلني أحدهم الحب أبدًا، ولم يلاحظني الناس أو يراني كأنني شبح.. وتعبت وقتها من كوني شبحًا لا يراه الناس، العالم قاسٍ للغاية مع المستضعفين.. مع من لايقدرون على خلق حديثٍ بسيطٍ مع الغرباء أو المقربين.

قبل (سماء الغزلان)

لم تحظَ عيونكم أو اهتمامكم بالروائيين المغمورين من أمثالي الذين كانوا بحاجة ماسة لبعض الدعم، وفي المقابل أي فتاة بألة تصوير وملابسٍ فاضحة حصلت منكم على كل الاهتمام والتقدير والدعم رغمًا عن أن كل ما قدمته للفن هو صدرها العاري.

قبل (سماء الغزلان)

كنت لا أعرف كيف أنهي حكاياتي؟ ولا أجد من يستمع إلى قصصي العجيبة، عن الأميرة التي صارت وحشًا بعد أن قَبّلها أميرها، والقلوب الطائرة الباحثة لها عن مستقر، وبعد (سماء الغزلان) صار الأمر مختلفًا، فالجميع يود الآن سمع حكاياتي المرتبطة فقط ب(سماء الغزلان).

أي أنني لم أنجح في هزيمة مرضي المسمى الواقع، ولا بتغيير أو احتمال أثره الجانبي المسمى بالعالم بل النجاح كله يذهب لسماء الغزلان وليس أنا.

والموت هو العلاج الوحيد لهذا المرض.

وبصدور (سماء الغزلان) الجزء الثاني وحصولها على الجائزة قد انتهى دوري..

أشكركم والآن وداعًا

***

لا أدري كيف وجدت نفسي بالخارج؟ أفك ربطة عنقي وألقيها؛ لأستطيع التنفس، رغبت في رؤية نهر النيل بشدة، ولكنه كان بعيدًا عني للغاية، ذهبت لأودع الشوارع؛ لأنها كانت أحن عليَّ من البشر، ودعت وسط البلد بقلبٍ محبٍ، وأكملت في طريقي لرمسيس ثم غمرة، ونظرت للمرة الأخيرة نحو بيت (مريم)، انتابني شعور بأنني لا انتمي لها ولكنها كانت بديلًا لشخص آخر، رحلت وقادتني قدمي لشبرا وكأنني أعود لمنزلٍ كنت مجرد ضيفٍ فيه.. شعرت بالاختناق وتركت شبرا بدموعٍ كثيفة، بعد لحظة وجدت نفسي فوق قصر

النيل، كم أنا سعيد لرؤية المياه، أشعلت سيجارتي، وجاءتني فكرة مجنونة بأن هناك من يكتبني، وأنني ما أنا إلا امتدادٌ لحياة شخصٍ أخر.. بحثت من حولي، ولم يكن هناك أحدٌ يهتم بصعودي فوق سور الكوبري.. عانقت جائزتي، ونظرت للعالم من خلفي للمرة الأخيرة غير آسفٌ على موتي أو انتحاري، ولكن آسفًا للعالم على أنني لم أقدر على تخليصه من الجوع والحزن والفقر.

أخذت قراري بكل سهولة كأنني أختار بين لونين مختلفين، أخذت نفسًا عميقًا ثم قفزت، وآخر ما رأيته هو سحابة قرمزية اللون تشبه فتاةً لم أقابلها في حياتي من قبل، ولم أتذوقها مسبقًا، ولكن تمنيت لو أسقط بين ذراعيها.

وقبل أن يلامس جسدي الماء قلت بخفوت:

ـ لقد انتصرت.

النهاية.